المستشار الدكتور علي جريشة

أدب الحوار والمناظرة

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة - ش.م.م

الطبعة الأولى

١٤١٠ هـ ـ ١٩٨٩ م

.زيع ـ المنصورة . ش.م.م

مد عبده المواجه لكلية الآداب

٢٥٦١٢٣٠

:، ٢٣٠ تلكس DWFA UN 24004

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمــة

شاء الله سبحانه أن أكلف بتدريس مادة « أصول الحوار والمناظرة » في قسم الاستشراق بالدراسات العليا بالمعهد العالي للدعوة الإسلامية المتفرع من جامعة محمد بن سعود الإسلامية ، وكان ذلك في مستهل العام الدراسي ١٤٠٣ / ١٤٠٤ هـ « ١٩٨٣ / ١٩٨٤ » .

ولم يكن من عادتي أن أرفض ما يطلب إلى ، فضلاً عن أنه جاء من جهة عزيزة وكريمة ، وبعد ظروف خاصة كنت معها على أهبة العودة إلى وطني الأول .

وقد شاركت ـــ بفضل الله ـــ في وضع منهج هذه المادة ، وأدخلت عليها ـــ لأول مرة ـــ بعضاً من قواعد الأصول فضلاً عن قواعد قرآنية يمكن أن تحكم الحوار والمناظرة ، وأن تضع لهما من الناحية الموضوعية ضوابط دقيقة تحفظ الباحث والمناظر ـــ بإذن الله ـــ من أن يزل أو يخزى ، وقد أقر مجلس المعهد العالي للدعوة ـــ مشكوراً ـــ منهج هذه المادة مع ما ارتأى من تعديلات .

وإذ كانت المادة .. صالحة بإذن الله بل لازمة لطلاب الدعوة .. فقد ارتأيت أن تعم فائدتها قدر الإمكان ، خاصة وأن ميدانها يكاد يكون خلواً إلا من مخطوطات قديمة[1] ، أو كتيبات صغيرة[2] .. وكانت أول محاولة حديثة سابقة على هذه المحاولة من أستاذ جليل حاول أن يقدم المادة في ثوب جديد ، وأسلوب حديث ، ووفق فى هذا المجال أيما توفيق[3] .

---

(١) من المخطوطات الكثير الدى عثرنا عليه فى مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة وهى تحتاج إلى التحقيق والإخراج .

(٢) من الرسائل والكتيبات . آداب البحث لأحمد مكى ١٣٥٣ هـ ، علم آداب البحث . المناظره ، مصطفى صبرى ، رسالة الشريف الجرجانى المسماة بالشريفي فى البحث والمناظرة ، آداب البحث والمناظره ـــ محمد أمين الشنقيطى .

(٣) هو الأستاذ / عبد الرحمن حسن حبنكة الميدانى صاحب كتاب « ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة » ـــ الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

بيد أن محاولتنا تلتزم المنهج المقرر ، وهى في الوقت نفسه صالحة لغير المنتظمين من رجال الدعوة وأبنائها ، فضلاً عما تميزت به من حرصها على الاستفادة من مادة الأصول بما يعين في هذا الميدان .

ولئن قبست ما استطعت من قواعد المنطق ، فقد حاولت قدر الاستطاعة تبسيطهاورفع الجفاف عنها ، وهي في هذا الصدد تنظر إليه نظرة وسطاً بين الذين أنكروه واعتبروه دخيلاً على العلوم الإسلامية(١) ، وبين من غالوا فيه فاعتبروه فرض كفاية في كل إقليم بل تجاوزوا ذلك إلى حد القول بأن « من لا معرفة له بعلم المنطق لا يوثق بعلمه »(٢) وقد كان سندنا في هذا الاقتباس أن قواعد المنطق في حقيقتها قواعد عقلية ، والإسلام احترم العقل — بعد الشرع — حتى جعله مناط التكليف ، وجعل إليه استنباط القواعد الشرعية من الكتاب والسنة مع استكمال سائر عناصر الاجتهاد ، وبعد ذلك ، وقبل ذلك « فالحكمة ضالة المؤمن ، أنى وجدها فهو أحق الناس بها »(٣) .

والله نسأل .. أن يسدد الخطى ، وأن يلهمنا الرشد ، وأن يجعل أعمالنا وأقوالنا خالصة لوجهه الكريم ، وأن يكتب لنا الجنة برحمته وفضله .. اللهم آمين .

المؤلف

المدينة المنورة في صباح الأربعاء ٢١ محرم عام ١٤٠٥ هـ .

---

(١) نذكر فى هذا الفريق الإمام الغزالى والإمام ابن تيمية ، الإمام جلال الدين السيوطى .

(٢) تروى هذه العبارة عن الإمام الغزالى — راجع التفكير فريضة إسلامية للأستاذ / عباس العقاد ، المنطق الواضح للشيخ محمود فايد ، تسهيل المنطق للأستاذ عبد الكريم مراد الأستاذ بالجامعة الإسلامية .

(٣) عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها » أخرجه الترمذى فى العلم ١٠ / ١٥٩ [شرح ابن العربى المالكى] . وأخرجه ابن ماجه فى الزهد ٢ / ١٣٩٥ رقم « ٤١٦٩ » .

الباب الأول

باب تمهيدى

مقدمات

الفصل الأول : حول فضل العلم والإخلاص فيه وأدبه

الفصل الثانى : الجدال المحمود والمذموم

الفصل الثالث : الحق والباطل

الفصل الرابع : تعريف المادة ونشأتها

الفصل الأول
حول فضل العلم والإخلاص فيه وأدبه

تقدمـــة :

لعله موضوع سبق إليه كثيرون ، ولعلى لا آتي فيه بجديد ، لكنها تقدمة وتذكرة ، والله المستعان .

المبحث الأول
فى فضل العلم والعلماء

فضل العلم فى كتاب الله :

لم تكن « فلتة » ولا « صدفة » أن تكون أول آية تتنزل من عند الله على نبيه ﴿ اقرأ .. ﴾(١) ولم تكن كذلك فلتة ولا صدفة أن يكون مطلع السورة الثانية قسماً بحرف هو « نون » ومعه قسم بالقلم والله أعلم بما ينزل .

لكن بعض الحكمة التى تتراءى لنا .. أنهما أداتا العلم : قراءة ، وكتابة وردتا في السورة الأولى « سورة العلق » فبدأت بالأمر بالقراءة ، ثم ذكرت بالإخلاص ﴿ **باسم ربك** ﴾(٢) ثم ذكّرت بقدرته ﴿ **الذي خلق** ﴾(٣) ، وضربت مثلاً لهذه القدرة ﴿ **خلق الإنسان من علق** ﴾(٤) ، ثم كررت أمر القراءة ﴿ **اقرأ وربك الأكرم** ﴾(٥) أكرمنا بهذا القرآن وأكرمنا معه بالعلم ثم منّ علينا بعد نعمة الخلق بنعمة العلم ﴿ **الذي علم بالقلم** ﴾(٦) وذكر الوسيلة الثانية للتعلم وللتعليم ، ثم أكد هذه النعمة وأكد فيها سابق علمه وسابغ فضله ﴿ **علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾(٧) .

(١ ــ ٧) العلق : ١ ــ ٥ .

أما السورة الثانية فقسم بحرف هو النون .. ولقد يكون ــ كما ذهب المفسرون ــ للفت النظر إلى ما بعده ، ولقد يكون إشارة إلى إعجاز هذا القرآن أنه من هذه الحروف البسيطة ن ، أ ، ل ، م ... إلخ ... ولقد تكون إشارة أخرى مرتبطة بما بعدها .. القلم الذي يسطر .. القلم الذي هو وسيلة مع القراءة للعلم .. وبعدها التعقيب ﴿ **ما أنت بنعمة ربك بمجنون** ﴾[1] ! .

وفى سورة « الرحمن » يقدم العلم على الخلق ثم يردفه بالعلم !

﴿ **الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان** ﴾[2] .

ثم يأتي سرد لآلاء الله بعد هذه النعمة الكبرى نعمة العلم التي تقدمت نعمة الخلق ثم أعقبتها ﴿ **الشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان . والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا في الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان** ﴾[3] .

وتأتي بعد ذلك إشارات في القرآن عديدة ، عددها البعض بما زيد على ثمانمائة ويكفينا منها آيات ثلاث ...

أما الأولى : فتحدد مكان العلماء

﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** ﴾[4] .

يقول فيها ابن عباس رضى الله عنهما « العلماء فوق المؤمنين مائة درجة ، ما بين الدرجة والأخرى كما بين السماء والأرض »[5] .

وأما الثانية : فتجعلهم فى « الشهادة » مع الله وملائكته .

﴿ **شهد الله أنه لا إلٰه إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط** ﴾[6] .

يشهدون مع الله وملائكته على أمرين : وحدانيته ، وقيامه سبحانه بالقسط !

(١) سورة القلم : ٢ .

(٢ ، ٣) الرحمن : ١ ــ ٩ .

(٤) المجادلة : ١١ .

(٥) تذكرة السامع .

(٦) آل عمران : ١٨ .

وأما الثالثة : فتقصر خشية الله عليهم ، والخشية لب التقوى ، والمتقون فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

يقول سبحانه : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماءُ** ﴾(١)

ويرتبط العلم مع التقوى ، والتقوى مع العلم ﴿ **واتقوا الله ويعلمكم الله** ﴾(٢) .

حتى ليقول ابن مسعود رضى الله عنه « إن الرجل لينسى العلم بالخطيئة يعملها »(٣) ونكتفي بهذه الآيات البالغات ! .

العلم فى سنة رسول الله ﷺ :

ورد كذلك عن رسول الله ﷺ ، الكثير من الحديث عن العلم ، وهو الذي علمه ربه ، وزاده لما دعا ﴿ **ربِّ زدني علما** ﴾(٤) .. علمه ربه وزاده بغير وسائل ، بغير قراءة ولا قلم ، وليس بمعجز لله أن يفعل .. وهو الذي خلق عيسى من غير أب ، وخلق حواء من غير أم ، وخلق آدم من غير أب ولا أم ! وأكتفى من هذه الأحاديث العديدة بثلاثة :

أولها : يحدد نسب العلماء .. أنهم إلى الأنبياء ينتسبون ، ومنهم يرثون ! « العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ واف »(٥) ، وشاهده من القرآن ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا** ﴾(٦) .

وقد قيل : إنهم مبلغو الوحى(٧) ! .

فأى شرف يحملون ، وإلى أى شرف ينتسبون ، وبأى أمانة ينهضون !

---

(١) فاطر : ٢٨ .

(٢) البقرة : ٢٨٢ .

(٣) تذكرة السامع .

(٤) طه : ١١٤ .

(٥) من حديث لأبي داود وابن ماجه والترمذى وابن حبان والحاكم مصححاً من حديث أبي الدرداء .

(٦) فاطر : ٣٢

(٧) تذكرة السامع ص ٤٧ .

﴿ وإنه لذكر لك ﴾ شرف لك ﴿ ولقومك وسوف تسألون ﴾[1] .

أما الثانى : فيحدد منزلتهم يوم القيامة .. أنهم مع الشهداء .. بل سبحان ربى .. فوق الشهداء « يوزن يوم القيامة مداد العلماء ، ودماء الشهداء »[2] قال بعضهم : مع أن أعلى ما للشهيد دمه ، وأدنى ما للعالم مداده .

أما الثالث : فيؤكد تلك المكانة بما يؤكد ما لهم من شفاعة تسبق شفاعة الشهداء « يُشَفَّعُ يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ثم العلماءِ ثم الشهداء »[3] .

بيد أن لهذه المكانة شروط :

إخلاص
وعلم نافع
وعمل بهذا العلم .. وهو ما نعرض له فيما بقى من سطور بإذن الله .

المبحث الثانى
الإخلاص فى العلم

ثمن المكانة الغالية :

سلعة الله غالية ...
ومن ثم كان لا بد لها من ثمن ...

وأول الثمن في هذا المجال أن يكون ثمة إخلاص وراء طلب العلم أوعطائه
والإخلاص في كل قربى إلى الله روح العمل .. وهو بالنسبة لطلب العلم وعطائه أوجب !

---

(1) الزخرف : ٤٤ .
(2) وفى هذا المعنى أنشد البعض :

أهلاً وسهلاً بالذين أحبهم ... وأودهم فى الله ذى الآلاء
ومداد ما تجرى به أقلامهم ... أزكى وأفضل من دم الشهداء
يا طالبى علم النبى محمد ... ما أنتم وسواكم بسَواء

(3) كنز ج ٥ ص ٢٠٤ .

﴿ وما أمروا إلَّا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ﴾[1] .

﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾[2] .

« إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[3] .

« من تعلم علماً لغير الله ، أو أراد به غير وجه الله فليتبوأ مقعده من النار »[4] .

« من تعلم علماً يبتغي به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلَّا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة »[5] .

« من طلب العلم ليجاري به العلماء ، أو ليماري به السفهاء ، أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله اللهالنار »[6] .

« تعوذوا بالله من جُبِّ الحُزْن ، قالوا وما جب الحزن ، قال : واد في جهنم تتعوذ منه كل يوم مائة مرة ، قيل يا رسول الله ومن يدخله ؟ قال القراءون المراءون بأعمالهم »[7].

« سئل رسول الله ﷺ عن الشهوة الخفية فقال « الرجل يتعلم العلم يحب أن يجلس إليه »[8] .

---

(١) البينة : ٥ .

(٢) الحج : ٣٧ .

(٣) البخارى ومسلم .

(٤) الترمذى فى العلم ١٠ / ١٢٣ عن ابن عمر [شرح ابن العربى المالكى] .

(٥) أبوداود فى العلم ٤ / ٧١ رقم « ٣٦٦٤ » . وابن ماجة فى المقدمة ١ / ٩٣ رقم « ٢٥٢ » .

(٦) أخرجه الترمذى فى العلم ١٠ / ١٢٢ [شرح ابن العربى المالكى] وابن ماجة فى المقدمة ١ / ٩٣ رقم « ٢٥٣ » .

(٧) أخرجه الترمذى فى الزهد ٩ / ٢٣٠ [شرح ابن العربى المالكى] وابن ماجة فى المقدمة ١ / ٩٤ رقم « ٢٥٦ » .

(٨) أورده ابن عبدالبر فى جامع بيان العلم وفضله ١ / ١٩٠ .

وثانيه أن يكون العلم نافعا :

ونفع العلم لصاحبه أولاً .. أن يعرفه الله وحدوده فيقف عند أمره ، وينتهي عند نهيه ، ثم أن ينفعه في حياته الدنيا .. ثم أن ينتفع به أهله وصحبه وجماعته ، ومجتمعه !

وهو بهذا إما أن يكون علم دين .. « **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم** »(١) « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين »(٢) .

وإما أن يكون علم دنيا مما ينفع الناس ومما انعقد الإجماع فيه أنه فرض كفاية ، إذا أدته طائفة أغنت عن بقية الأمة ، وإن لم يؤده أحد أو أدته طائفة غير كافية أثم الجميع .

ــ ولقد كان رسول الله ﷺ يسأل ربه « اللهم إني أسألك علماً نافعاً ، ورزقاً طيباً ، وعملاً متقبلاً »(٣) .

وكان يقول : « سلوا الله علماً نافعاً ، وتعوذوا بالله من علم لا ينفع »(٤) .

وكان يدعو ربه : « اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، ودعاء لا يسمع ، وقلب لا يخشع ، ونفس لا تشبع ، اللهم إنى أعوذ بك من هؤلاء الأربع »(٥) .

وكان يقول : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه »(٦) .

وثالثه أن يعمل بعلمه :

حتى يكون نافعاً ..

---

(١) التوبة : ١٢٢ .

(٢) أخرجه البخارى فى العلم ١ / ٢٧ ، ومسلم فى الإمارة ٣ / ١٥٢٤ ، والترمذى فى العلم ١٠ / ١١٤ [شرح ابن العربى المالكى] وغيرهم .

(٣) أخرجه ابن ماجة ١ / ٢٩٨ رقم « ٩٢٥ » وأحمد فى المسند ٦ / ٢٩٤ ، ٣٠٥ ، ٣١٨ ، ٣٢٢ .

(٤) أخرجه ابن ماجه فى الدعاء ٢ / ١٢٦٣ رقم « ٣٨٤٣ » .

(٥) أخرجه مسلم فى الذكر ٤ / ٢٠٨٨ رقم « ٢٧٢٢ » والترمذى فى الدعوات ١٣ / ٢٤ [شرح ابن العربى المالكى] وابن ماجة فى المقدمة ١ / ٩٢ رقم « ٢٥٠ » وغيرهم .

(٦) ورد فى الترغيب والترهيب ١ / ١٢٧ رقم « ١٥ » وقال المنذرى : رواه الطبرانى فى الصغير ، والبيهقى .

وحتى يتسق القول مع السلوك ، والظاهر مع الباطن .

وحتى ينجو من وعيد الله : ﴿ **يأأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** ﴾(١) .

﴿ **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب** ﴾(٢) .

﴿ **مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً** ﴾(٣) .

وقد أُوِّل قول الله : ﴿ **وإنه لذو علم لما علمناه** ﴾(٤) بقولهم وإنه لذو عمل لما علمناه . وأُوِّلَ قوله : ﴿ **يتلونه حق تلاوته** ﴾(٥) أى يعملون به حق العمل به .

ـــ **وفي الحديث** « ما تزال قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع :

عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه »(٦) .

ومنه قوله : « تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعملوا »(٧) .

وقوله : « طوبى لمن تواضع في غير منقصة ، وذل في نفسه في غير مسكنة ، وأنفق من مال جمعه في غير معصية ، وخالط أهل الفقه والحكمة ، ورحم أهل الذل والمسكنة ، طوبى لمن ذل نفسه وطاب كسبه ، وحسنت سريرته ، وكرمت علانيته ، وعزل عن الناس شره ، طوبى لمن عمل بعلمه ، وأنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله » (٨) .

---

(١) الصف : ٢ ، ٣ .

(٢) البقرة : ٤٤ .

(٣) الجمعة : ٥ .

(٤) يوسف : ٦٨ .

(٥) البقرة : ١٢١ .

(٦) ورد فى الترغيب والترهيب ١ / ١٢٥ رقم (٥) وقال المنذرى : رواه البيهقى وغيره من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه .

(٧) أورده ابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله ٢ / ٦ وقال : رواه ابن عدى فى الكامل والخطيب فى التاريخ .

(٨) ورد فى الفتح الكبير ٢ / ٢١٥ وقال السيوطى : البخارى فى التاريخ والبغوى والباوردى وابن قانع والطبرانى والبيهقى عن ركب المصرى .

وروى عن علي رضي الله عنه :

« يا حملة العلم اعملوا به فإنما العالم من علم ثم عمل، ووافق علمه عمله ، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم ، تخالف سريرتهم علانيتهم ، ويخالف عملهم علمهم ، يقعدون حلقاً فيباهي بعضهم بعضاً حتى أن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه ، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله عز وجل »(١) .

وعن أبي بن كعب :

« تعلموا العلم واعملوا به ، ولا تتعلموه لتتجملوا به ، فإنه يوشك إذا طال بكم زمان أن يتجمل بالعلم كما يتجمل الرجل بثوبه »(٢) .

قال بعض العلماء :

« العلم يهتف بالعمل ، فإن أجابه وإلّا ارتحل »(٣) .

المبحث الثالث

بعض آداب العلم

أول آدابه : الإخلاص وقد تقدم :

وفيه يقول سفيان الثوري : « ما عالجت شيئاً أشد علي من نيتي » .

ويقول الإمام الغزالي : أن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة وفي المآل القرب من الله تعالى والترقي إلى جوار الملأ الأعلى من الملائكة

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ٢ / ٧ .

(٢) جامع بيان العلم وفضله ٢ / ٦ .

(٣) قاله سفيان الثوري . إحياء علوم الدين ١ / ٥٩ .

والمقربين »[1] .

وثانيه : البعد عن المعاصي :

فالمعاصي تطفيء نور الله .

وقد تقدم قول ابن مسعود : « إني لأحسب الرجل ينسى العلم بالخطيئة يعملها[2] .

وأنشد الشافعي ــ رحمه الله ــ

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلــم نور ونور الله لا يهدى لعاصي

وثالثها : خلق حسن :

يجمل العالم والمتعلم على السواء .

نخص بالذكر :

التواضع : لأن الكبر يكسب المقت ، ويوهن الألفة ، ويذهب الأخوة .

وقد قال رسول الله ﷺ لعمه العباس « أنهاك عن الشرك والكبر فإن الله يحتجب منهما »[3] .

الحياء : والحياء شعبة من الإيمان ، وهو خير كله ، ويكون من الله ومن النفس ومن الناس[4] .

---

(١) الإحياء : ١ / ٥٣ .

(٢) انظر ص ٩ من الكتاب نفسه .

(٣) أنشد أحدهم فى دم الكبر :

عجبت من معجب .بصورتــه وكان بالأمس نطفــــة عذرة
وفى غد بعد حسن صورتــه يصير فى اللحد جيفــة قذرة
وهـــو على تيهه ونخــوتـــه ما بين ثوبيه يحمل العــذرة

(٤) الحياء ثلاثة :

حياء من الله يجمعه قوله عليه الصلاة والسلام : « استحيوا من الله حق الحياء ، فقالوا يا رسول الله : إنا نستحي والحمد لله ، قال ليس ذاك ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى ،والبطن وما=

الصدق : الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة .

الزهد والورع : والزهد قصر الأمل ، والورع اجتناب المحارم .

وكان من دعائه ﷺ : اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى[1] .

القناعة : من القوت بما تيسر ، ومن اللباس بما يستر .

السكينة والوقار : قال عمر : « تعلموا العلم ، وتعلموا له السكينة والوقار »[2] .

ورابعها : توقير العلم والعلماء :

وهذا يتأتى من معرفة فضله وفضلهم .

كما يتأتى من صيانته ، ومن صيانته العمل به ــ وقد تقدم ــ وعدم حمله إلى المتعلم ، وعدم السعي به إلى السلطان .

« سيكون بعدي أمراء ، فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم ، وأعانهم على ظلمهم ، فليس مني ولست منه وليس بوارد على الحوض ، ومن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ، ولم يصدقهم بكذبهم فهو مني وأنا منه وهو وراد على الحوض »[3] .

قال عليه الصلاة والسلام : ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه[4] .

=حوى، ولتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء » الحديث أخرجه الترمذى فى سننه ٩ / ٢٨١ [شرح ابن العربى المالكى] . والإمام أحمد فى المسند ١ / ٣٨٧ .

الحياء من النفس : بالعفة وصيانة الخلوات فَسِرِّى كإعلانى وتلك خليقتى ــ وظلمة ليلى مثل ضوء نهاريا .

(١) الحديث أخرجه مسلم فى الذكر والدعاء ٤ / ٢٠٨٧ « ٢٧٢١ » .

(٢) جامع بيان العلم وفضله ١ / ١٣٥ .

(٣) أخرجه الترمذى فى الفتن ٩ / ١١٧ [شرح ابن العربى المالكى] .

(٤) أخرجه الترمذى فى الزهد ٩ / ٢٢٣ [شرح ابن العربى المالكى] والدارى فى الرقاق ٢ / ٣٠٤ .

خامسها : تنظيم الأوقات ، وتقليل النوم والطعام ، والقصر من الجماع :

قيل : خير الأعمال أدومها وإن قل ، وخير الأوقات :

للحفظ الأسحار ، **وللبحث** الأبكار ، **وللكتابة** وسط النهار ، **وللمطالعة والمذاكرة** الليل .

ـــ وقلة الطعام تزيد النشاط وتخفف الرغبة إلى النوم .

ـــ وقلة الجماع تحفظ القوى من الإنهاك ، وتمنع ضعف البصر حتى لقد فضل البعض العزوبة لطالب العلم لئلا يقطعه عنه الاشتغال بحقوق الزوجة وطلب المعيشة .

واستحب آخرون الإحصان حفاظاً على العفة والطهارة وصفاء العقل والنفس ولنا الرأى الأخير، ونضيف إليه ما قرره الفقهاء من أن لراغب الزواج حقاً في بيت المال لإحصان نفسه ، حتى عده البعض في باب مصارف الزكاة ، بل وعدوا الزوجة الثانية إذا احتاج إليها .

الفصل الثانى
الجدال المحمود والمذموم

تقدمـــة :

الجدال
والتحاج ، أو المحاجة
والتمارى ، أو المراء
ألفاظ تترادف لتشير إلى معنى « التخاصم » .. وإن تفاوتت النسبة بينها ، وتشعبت بعضها إلى الدلالة على معان أخرى .

ونرى أن نشير إلى معنى كل لفظ على حدة .

أولاً : الجدال :

لغة : جاء فى مختار الصحاح :
جادله : خاصمه ، ومجادلة ، وجدالاً
والاسم : الجدل وهو شدة الخصومة .

ــ وقيل مشتق من الجدل وهو القتل ، ومنه زمام مجدول .

ــ وقيل مشتق من الجدالة التي هى على الأرض ، فكأن كل من الخصمين يقاوم صاحبه حتى يغلبه فيكون كمن ضرب به الجدالة .

قال الشاعر : **قد أركب الآلة بعد الآلة وأترك العاجز بالجَدَالة**
مُنْعَفِراً ليست له محالة(١)

وقد ورد اللفظ في القرآن باشتقاقات مختلفة ..

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ــ للقرطبى ــ ج ٢ ص ٤١٠ .

ورد فعلاً .. ماضياً ، ومضارعاً ، وأمراً ، واستفهاماً .
وورد مصدراً لصيغ مختلفة :
جدلاً ، جدالاً ، ولم يرد بصيغة « مجادلة » (مفاعلة) .
والذي نلحظه من استعمالات القرآن الكريم أن استعماله بمعناه « المذموم » هو الغالب :

- ﴿ وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴾(١) .
- ﴿ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ﴾(٢) .
- ﴿ ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة ﴾(٣) .
- ﴿ وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون ﴾(٤) .
- ﴿ أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾(٥) .
- ﴿ حتى إذاجاءوك يجادلونك .. ﴾(٦) .
- ﴿ يجادلونك في الحق بعدما تبين .. ﴾(٧) .
- ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ﴾(٨) .
- ﴿ .... وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال ﴾(٩).
- ﴿ ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ﴾(١٠).
- ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ﴾(١١).
- ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدىً ولا كتاب منير ﴾(١٢).

---

(١) غافر : ٥ .
(٢) النساء : ١٠٧ .
(٣) النساء : ١٠٩ .
(٤) الحج : ٦٨ .
(٥) الأعراف : ٧١ .
(٦) الأنعام : ٢٥ .
(٧) الأنفال : ٦ .
(٨) الأنعام : ١٢١ .
(٩) الرعد : ١٣ .
(١٠) الشورى : ٣٥ .
(١١) الحج : ٣ .
(١٢) الحج : ٨ .

ـــ ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدىً ولا كتاب منير ﴾[1]

ـــ ﴿ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ﴾[2].

ـــ ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلا ﴾[3].

ـــ ﴿ يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ﴾[4].

ـــ ﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ﴾[5] « أى تخاصم » .

وإذا أخذنا مثلاً آية : ﴿ فلا رفثَ ولا فسوق ولا جدال في الحج ﴾ .

فقد اختلف العلماء حول المراد بالجدال في هذا الآية لكنهم يتفقون على أنه شيء مذموم على النحو التالي :

ـــ الجدال بمعنى المراء حتى تغضب مسلماً فينتهي إلى السباب « ابن مسعود ، ابن عباس ، عطاء » .

ـــ الجدال بمعنى السباب « قتادة » .

ـــ الجدال بمعنى الاختلاف .

ـــ الجدال بمعنى المماراة في الشهور .

ـــ الجدال بمعنى أن تقول طائفة لأخرى : حَجُّنا أبرُّ من حجكم .

ـــ الجدال بمعنى الفخر بالآباء[6] .

قد يرد الجدال بالمعنى المحمود :

ـــ ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله

---

(١) لقمان : ٢٠ .
(٢) البقرة : ١٩٧ .
(٣) الكهف : ٥٤ .
(٤) هود : ٣٢ .
(٥) النحل : ١١١ .
(٦) الجامع لأحكام القرآن ـــ القرطبي ـــ ج ٢ ص ٤١٠ .

يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾(١) فقد وردت هنا بمعنى الحوار « الهادىء » .

ــ ﴿ ولاتجادلوا أهل الكتاب إلَّا بالتي هى أحسن ﴾(٢) .

ــ ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾(٣) .

ــ ﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط إن إبراهيم لحليم أواه منيب ﴾(٤) .

وهذه مواضعه الأربعة التى ورد فيها حسناً .

والجدال في الحالة الأخيرة كما في الحالة الأولى كان حواراً هادئاً بين نبى الله ورسوله إبراهيم ــ عليه السلام ــ وبين ملائكة الرحمن « وقد رواها حميد بن هلال عن جندب عن حذيفة » وذلك أنهم لما قالوا ﴿ إنا مهلكوا أهل هذه القرية ﴾ قال لهم : أرأيتم إن كان فيها خمسون من المسلمين أتهلكونهم ؟

قالوا : لا .

قال : فأربعون ؟

قالوا : لا .

قال : فثلاثون .

قالوا : لا .

---

(١) جاء في صفوة التفاسير « المجلد الثالث » ص ٣٣٤ .

روى أن « خولة بنت ثعلبة » أراد زوجها « أوس بن الصامت » مواقعتها يوماً ، فأبت ، فغضب وظاهر منها ، فأتت رسول الله ﷺ وقالت : يا رسول الله إن أوساً ظاهر منى ، بعد أن كبرت سني ، ورق عظمي ، وإن لي منه صبيّة صغاراً ، إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلى جاعوا ، فماذا ترى ؟ فقال لها : « ما أراك إلا قد حرمت عليه » فقالت : يا رسول الله ، والله ما ذكر طلاقاً ، وهو أبو ولدى ، وأحب الناس إلى ... فما زالت تراجعه ، حتى نزل قوله تعالى : ﴿ قد سمع ... ﴾ .

وروى البخارى عن عائشة أنها قالت : تبارك الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة ــ خولة بنت ثعلبة ــ فكلمت رسول الله ، ﷺ ، وأنا في جانب البيت ، أسمع كلامها ، ويخفى على بعضه ، وهى تشتكي زوجها وتقول : يا رسول الله : أبلى شبابي ، ونثرت له بطني ، حتى إذا كبر سني ، وانقطع ولدى ، ظاهر مني ، اللهم إنى أشكو إليك ، فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات . « أخرجه البخارى وابن ماجة والبيهقي » وأشار إليه صفوة التفاسير ، المجلد الثالث ص ٣٣٤ .

(٢) العنكبوت : ٤٦ .

(٣) النحل : ١٢٥ .

(٤) هود : ٧٤ ، ٧٥ .

قال : فعشرون .

قالوا : لا .

قال : فإن كانوا فيها عشرة ــ أو خمسة شك حميد ــ

قالوا : لا .

قال : فقال ــ يعني إبراهيم ــ قوم ليس فيهم عشرة من المسلمين لا خير فيهم وقيل إن إبراهيم قال : أرأيتم إن كان فيها رجل مسلم أتهلكونها ؟ .

قالوا : لا .

فقال عند ذلك : **﴿ إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينَّهُ وأهله إلّا امرأته كانت من الغابرين ﴾**(1) .

والجدال بالتي هي أحسن : جاءت العبارة التالية للجدال قيداً عليه ، لتميزه عن الجدال المذموم من ناحية ، ولبيان أنه لا ترذيل فيه ، ولا تقبيح ، حتى يطمئن إلى الداعى ، ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل ، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق ، فالنفس البشريةلها كبرياؤها وعنادها ، وهى لا تنزل عن الرأى الذى تدافع عنه إلّا بالرفق ، حتى لا تشعر بالهزيمة ، وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأى وقيمتها هي عند الناس فتعتبر التنازل عن الرأى تنازلاً عن هيبتها واحترامها وكيانها ، والجدل بالحسنى هو الذي يطامن من هذه الكبرياء الحساسة ، ويشعر المجادل أن ذاته مصونة وقيمته كريمة وأن الداعي لا يقصد إلّا كشف الحقيقة في ذاتها والاهتداء إليها في سبيل الله لا في سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة الرأى الآخر »(2) .

وقد قال فيه القرطبي كذلك :

وأما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها وحل مشكلها ، ومقادحة أهل العلم في استنباط معانيها ، ورد أهل الزيغ بها وعنها ، فأعظم جهاد في سبيل الله .

ثانيا : التحاج :

وهو مجاذبة الحجة

---

(1) الجامع لأحكام القرآن ، ج 9 ص 72 .

(2) سيد قطب ــ رحمه الله ــ « الظلال » ــ ج 14 ص 2202 .

أو التخاصم ، وفي المثل لَجَّ فَحَجَّ فهو رجل مِحْجَاج أى جَدِل[1] .

وقد وردت في القرآن ثلاث عشرة مرة :

١ ــ ﴿ ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم في ربه ﴾[٢] .

٢ ــ ﴿ هاأنتم هولاء حاججتم فيما لكم به علم ﴾[٣] .

٣ ــ ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم ﴾[٤] .

٤ ــ ﴿ وحاجه قومه .. ﴾[٥] .

٥ ــ ﴿ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ﴾[٦] .

٦ ــ ﴿ لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل ﴾[٧] .

٧ ــ ﴿ فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ﴾[٨] .

٨ ــ ﴿ قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ﴾[٩] .

٩ ــ ﴿ وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ﴾[١٠] .

١٠ ــ ﴿ أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ﴾[١١].

١١ ــ ﴿ أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم ﴾[١٢].

١٢ ــ ﴿ والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له ﴾[١٣] .

١٣ ــ ﴿ وإذ يتحاجون في النار ﴾[١٤].

وقال فيها الإمام القرطبي تعليقاً على قوله تعالى : **﴿ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم فى ربه ﴾**[١٥] :

وتدل على إثبات المناظرة والمجادلة وإقامة الحجة :

وفى القرآن والسنة من هذا كثير لمن تأمله :

---

(١) مختار الصحاح ص ١٢٣ ــ تحت حجج .
(٢) البقرة : ٢٥٨ .
(٣) سورة آل عمران : ٦٦ .
(٤) آل عمران : ٦١ .
(٥) الأنعام : ٨٠ .
(٦) آل عمران : ٢٠ .
(٧) آل عمران : ٦٥ .
(٨) آل عمران : ٦٦ .
(٩) البقرة : ١٣٩ .
(١٠) الأنعام : ٨٠ .
(١١) البقرة : ٧٦ .
(١٢) آل عمران : ٧٣ .
(١٣) الشورى : ١٦ .
(١٤) غافر : ٤٧ .
(١٥) البقرة : ٢٥٨ .

ـــ قال الله تعالى : ﴿ **قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** ﴾[1] .
ـــ ﴿ **إنْ عندكم من سلطان** ﴾[2] أى من حجة .

وقد وصف خصومة إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ مع قومه ورده عليهم فى عبادة الأوثان كما في سورة الأنبياء وغيرها .

وقال في قصة نوح ـــ عليه السلام ـــ : ﴿ **قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا** ﴾ . الآيات إلى قوله : ﴿ **وأنا بريء مما تجرمون** ﴾[3] .

وكذلك مجادلة موسى مع فرعون إلى غير ذلك من الآى .

فهو تعليم من الله عز وجل السؤال والجواب والمجادلة في الدين ، لأنه لا يظهر الفرق بين الحق والباطل إلّا بظهور حجة الحق ودحض حجة الباطل .

وجادل رسول الله ﷺ أهل الكتاب وبَاهَلَهُم بعد الحجة .

وتحاج آدم وموسى فغلبه آدم بالحجة .

وتجادل أصحاب رسول الله ﷺ يوم السقيفة وترافعوا وتقرروا وتناظروا حتى صدر الحق في أهله .

وتناظروا بعد مبايعة أبي بكر في أهل الردة إلى غير ذلك مما يكثر إيراده .

وفي قول الله عز وجل .. ﴿ فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم[4] » دليل على أن الاحتجاج بالعلم مباح شائع لمن تدبر .

وقال المُزَنى **صاحب الشافعي** : ومن حق المناظرة أن تراد في الله عز وجل وأن يقبل منها ما تبين ، **وقالوا : لا تصح المناظرة ويظهر الحق بين المتناظرين حتى يكونا متقاربين أو مستويين فى مرتبة واحدة من الدين والعقل والإنصاف وإلّا فهو مراء أو مكابرة .**

ونحن نلاحظ أن استعمال « التحاج » جاء قريبا من استعمال الجدال وإن غلب في استعماله في الآيات الكريمة الإشارة إلى الجدال « المذموم » عدا قوله تعالى : ﴿ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[5] .

---

(1) البقرة ١١١ ، النمل: ٦٤ .
(2) يونس : ٦٨ .
(3) هود : ٣٢ ـــ ٣٥ .
(4، 5) آل عمران : ٦٦ .

وإذا صح منا هذا الاستنتاج فإن المحاجة بمعنى الجدال المحمود تكون قد جاءت هنا من قبيل المشاكلة التي يستعملها القرآن مثل قوله : ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾(١) فمكرهم مكر سيء ومكر الله مكر حسن ... وقوله: ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ﴾(٢) وقوله : ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ﴾(٣) وغيره كثير .

ثالثاً : المراء :

يأتي بمعنى الجحود : ماراه حقه أى جحده .
ومنها قوله : ﴿ أفتمارونه على ما يرى ﴾(٤) .
وماراه مراء : جادله .
والمرية الشك وكذلك الافتراء(٥)

المراء في القرآن : وقد وردت اللفظة في القرآن باشتقاقات كثيرة ثماني عشرة مرة :

١ ــ ﴿ فلا تمار فيهم إلَّا مراءً ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحدا ﴾(٦) .
٢ ــ ﴿ أفتمارونه على ما يرى ﴾(٧) .
٣ ــ ﴿ ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد ﴾(٨) .
٤ ــ ﴿ ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر ﴾(٩) .
٥ ــ ﴿ فبأى آلاء ربك تتمارى ﴾(١٠).
٦ ــ ﴿ وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون ﴾(١١) .
٧ ــ ﴿ ثم قضى أجلاً وأجل مسمىً عنده ثم أنتم تمترون ﴾(١٢).
٨ ــ ﴿ إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾(١٣).

(١) آل عمران : ٥٤ .
(٢) النساء : ١٤٢ .
(٣) البقرة : ١٤ ، ١٥ .
(٤) النجم : ١٢ .
(٥) مختار الصحاح ــ مادة مراء ص ٦٢٢ .
(٦) الكهف : ٢٢ .
(٧) النجم : ١٢ .
(٨) الشورى : ١٨ .
(٩) القمر : ٣٦ .
(١٠) النجم : ٥٥ .
(١١) الزخرف : ٦١ .
(١٢) الأنعام : ٢ .
(١٣) الدخان : ٥٠ .

٩ ــ ﴿ ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ﴾(١) .
١٠ ــ ﴿ الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴾(٢) .
١١ ــ ﴿ الحق من ربك فلا تكن من الممترين ﴾(٣) .
١٢ ــ ﴿ يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين ﴾(٤) .
١٣ ــ ﴿ قد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴾(٥) .
١٤ ــ ﴿ فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك ﴾(٦) .
١٥ ــ ﴿ فلاتك فى مرية مما يعبد هؤلاء ﴾(٧) .
١٦ ــ ﴿ ولا يزال الذين كفروا في مرية منه ﴾(٨) .
١٧ ــ ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه ﴾(٩) .
١٨ ــ ﴿ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ﴾(١٠) .

في ثمانيةعشر موضعاً ، وهى تتردد بين :

الجحود ، والشك ، والجدل المذموم .

لكنه لم تأت بمعنى الجدل الحسن ، وعندما جاءت قريباً من ذلك ﴿ فلا تمار فيهم إلا مراءً ظاهرا ﴾(١١) « الكهف : ٢٢ » جاءت على طريقة المشاكلة التى أشرنا إليها ، فضلاً عن القيد الذي جاء مصاحباً للكلمة « ظاهراً » مما يؤكد المعنى .

وفى هذا يقول القرطبى ــ رحمه الله ــ :

ولم يبح له في هذه الآيةأن يمّارى ، ولكن قوله ﴿ إلّا مراءً ﴾ استعارة من حيث يماريه أهل الكتاب ، **سميت مراجعته لهم مراء ثم قيد بأنه ظاهر ففارق المراء الحقيقي المذموم .**

---

(١) مريم : ٣٤ .
(٢) البقـرة : ١٤٧ .
(٣) آل عمران : ٦٠ .
(٤) الأنعام : ١١٤ .
(٥) يونس : ٩٤ .
(٦) هود : ١٧ .
(٧) هود : ١٠٩ .
(٨) الحج : ٥٥ .
(٩) السجدة : ٢٣ .
(١٠) فصلت : ٥٤ .
(١١) الكهف : ٢٢ .

وفى الحديث عن « أبي أمامة مرفوعا » :

« أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً ، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً ، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه »[1] .

خلاصة :

من كل ذلك نصل إلى :

١ ــ الجدال : ٢١مرة ــ المحاجة ١٣ مرة ــ المراء ١٨ مرة .
٢ ــ أن الجدال ، والمحاجة ، والمراء .. جاءت مترادفات بمعان متقاربة .
٣ ــ أنها إذا أطلقت فإنها تعنى الشيء المذموم .
٤ ــ أن ترتيبها في أداء معنى الذم تأتي في مقدمته المراء ثم المحاجة ثم الجدال .

٥ ــ أن القرآن أورد قيد « الحسن » على الجدال ليميزه عن الجدل المذموم ولينشير إلى « إباحته » أو « الندب إليه » أو وجوبه تبعاً للأحوال ، وأنه في غير الآيتين الكريمتين اللتين جاء فيهما هذا القيد فإن قيد « الحسن » يفهم من سياق الآيات . والله أعلم .

٦ ــ من كل ما تقدم يتبين لنا أن :

الجدال ، والمحاجة والمراء .. بالمعنى المحمود قد ورد في القرآن .

في الأولى : قوله تعالى : **﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾**[2] .

﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلّا بالتي هى أحسن ﴾[3] .

﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم

---

(١) رواه أبو داود في السنن ، والترمذي ٥٨ ، وابن ماجه : ٧ .
(٢) النحل الآية : ١٢٥ .
(٣) العنكبوت : ٤٦ .

لوط ﴾[1] .

﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله ﴾[2] .

والثانية : في قوله تعالى :

﴿ هاأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ﴾[3] .

وفي الثالثة : في قوله تعالى :

﴿ فلا تمار فيهم إلّا مراءً ظاهراً ﴾[4] .

وفي هذه وغيرها بما نهى عنه .. دلت الأولى بمفهوم العبارة أو مفهوم الإشارة ، ودلت الثانية والثالثة بمفهوم المخالفة أو بالقيد الوارد عليها على جواز الجدال .

وتأكد ذلك بآيات أخرى مثل قوله تعالى :

﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾[5] وقوله : ﴿ إنْ عندكم من سلطان بهذا ﴾[6] .

كما تأكد من خلال قصة ــ نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، ومحمد ــ عليهم الصلاة والسلام ــ ، وفي سقيفة بني ساعدة ، وفي حرب الردة ، وفي أرض السواد ، ومن كلام العلماء والفقهاء على جواز الجدال « دحضا للباطل وإحقاقا للحق » .

والآن ننظر .. إلى الحق والباطل .. صراعه .. كيف يدفعون الحق .. لنصل إلى كيف ندمغ باطلهم ...

---

(١) هود : ٧٤ .
(٢) المجادلة : ١ .
(٣) آل عمران : ٦٦ .
(٤) الكهف : ٢٢ .
(٥) البقرة : ١١١ ، النمل : ٦٤ .
(٦) يونس : ٦٨ .

الفصل الثالث
الحق والباطل

تقدمة :

الحق أشرف الأسماء ، وضده الباطل ...

وهما على وجه الأرض يصطرعان منذ شاء الله « الحق » للخلق أن يوجد .. لكن لمن الغلبة .. ؟ .

ثم لم يعرضون عن الحق .. والحق أبلج .. ؟ .

وكيف يدفعون الحق .. والحق أغلب .. ؟ .

هذه تقدمة نتناول بعدها هذه النقاط بمشيئة الله ، والله المستعان .

١ ـ الحق والباطل

ــ **الحق أسبق من الباطل** ، وهو كذلك أغلب ، وأبقى .

فالله « الحق » ولا شيء قبله ، والله « الحق » ولا شيء بعده **﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴾**(١) **﴿ خلق السماوات والأرض بالحق ﴾**(٢) ، وأنزل الكتاب بالحق ..

والحق « وهو القرآن ، وهو الإسلام » وجد منذ بدء الخليقة ، وإن تنزل على مراحل .

(١) الحديد : ٣ .

(٢) النحل : ٣ .

والحق « وهو العدل » هو الأبقى ﴿ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾[1] .

﴿ واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ياويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين ﴾[2] .

فالحق أشرف الأسماء :

فهو علم على الله سبحانه ﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ﴾[3] .

وهو علم على الإسلام ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل ﴾[4] ، ﴿ إنك على الحق المبين ﴾[5] .

وهو علم على القرآن ﴿ بل كذبوا بالحق لما جاءهم ﴾[6] .

وهو علم على الصدق ﴿ ويستنبئونك أحق هو قل إى وربى إنه لحق ﴾[7] .

وهو من بعد ذلك كله :

اسم جامع لكل خير ، وبر وشرف .

فى مقابل الباطل الجامع للشر ، والحقد ، والدنيئة[8] .

---

(١) النور : ٢٥ .
(٢) الأنبياء : ٩٧ .
(٣) المؤمنون : ٧١
(٤) الإسراء : ٨١ .
(٥) النمل : ٧٩ .
(٦) ق : ٥ .
(٧) يونس : ٥٣ .
(٨) ذكر الفقيه المفسر الحسين محمد الدمغانى اثنى عشر وجهاً منها غير ما تقدم :
ـ بمعنى وجب ﴿ أولئك الذين حق عليهم القول ﴾ سورة الأحقاف : ١٨ .
ـ ما يضاد الباطل : ﴿ وتواصوا بالحق ﴾ العصر : ٣ .
ـ بمعنى المال : ﴿ وليملل الذي عليه الحق ﴾ سورة البقرة : ٢٨٢ .
ـ بمعنى أولى : ﴿ ونحن أحق بالملك منه ﴾ البقرة : ٢٤٧ .
ـ بمعنى الحظ : ﴿ والذين في أموالهم حق ﴾ سورة المعارج : ٢٤ .
ـ بمعنى الحاجة : ﴿ لقد علمت ما لنا في بناتك من حق ﴾ هود : ٧٩ .
(قاموس القرآن . أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ص ١٣٩) .

وفى اللغة :

الحق ضد الباطل .

والحاقة القيامة لأن فيها « حواق » الأمور .

وحق الشيء يحق حقاً أى أوجب الشيء .

ومنه حق ، وحقيق .

وتحقق عن الشيء أى صح .

وحقق قوله وظنه « تحقيقاً » أى صدقه .

ومحقق بمعنى رصين .

والحقيقة ضد المجاز ، وضد الكذب ، وبمعنى الراية(١) .

والباطل ضد الحق .

والجمع أباطيل « على غير قياس » وقيل بواطل .

والباطل : الزائل الذاهب ، « ذهب ضياعاً وخسرا » ، وتَبَطَّلوا تداولوا بالباطل ، وبطل الرجل صار بطلاً ، وبطل الأمير بطالة أى تعطل فهو « بَطَّال » .

٢ ـ صراع الحق والباطل

تقدمة :

الحق والباطل .. بمعنى الخير والشر .. يصطرعان .

والحق وإن كان أسبق على الباطل ، وهو بعده أبقى ، فقد لحق به الباطل ، وانطوت النفس على الأمرين ... ليكون البلاء ، ومن بعده الثواب والعقاب ﴿ **ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها** ﴾(٢) .

وأول الصراع كان من إبليس :

دفعه إليه كبر وكفر وإباء ﴿ **إلَّا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين** ﴾(٣) ففقد مكانه في الجنة بين الملائكة ، وخرج منها مذءوماً مدحوراً

(١) انظر مختار الصحاح ص ١٤٦ ـــ ١٤٧ .

(٢) الشمس : ٧ ـــ ١٠ .

(٣) البقرة : ٣٤

ملعوناً إلى يوم الدين .

ذلك أن الكبر أفقده قدر نفسه .. ودفعه إلى التطاول إلى مقام ربه ، ليجادله في أمره ، وليعطى نفسه بنفسه الخيرية على آدم أبي البشرية ، وليسند هذه الخيرية إلى معاييره هو .. لا إلى ما شرع الله وأمر ﴿ **أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين** ﴾(١) مع أن الملائكة وهم من « نور » لا « نار » سجدوا وأطاعوا رب العالمين .

ومع أن المعيار الذي ارتضاه رب العالمين ﴿ **ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ...** ﴾(٢) ﴿ **وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه** ﴾(٣) .

ومع أن القاعدة قبل ذلك كله :

﴿ **إني أعلم ما لا تعلمون** ﴾(٤) ﴿ **والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾(٥) ﴿ **لايسأل عما يفعل وهم يسألون** ﴾(٦) .

ثم تتابع الصراع ..

﴿ واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قرَّبا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر .. قال لأقتلنك . قال إنما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين . إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين . فطوَّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين . فبعث الله غراباً يبحث في الأرض لِيُرَيَهُ كيف يُوارِي سَوْأَة أخيه . قال ياويلتي أعَجَزْتُ أن أكون مثل هذا الغراب

---

(١) ص ٧٦ .
(٢) الإسراء : ٧٠ .
(٣) الجاثية : ١٣ .
(٤) البقرة : ٣٠ .
(٥) البقرة : ٢٣٢ .
(٦) الأنبياء : ٢٣ .

فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين ﴾[1] .

وبين آدم ونوح :

قيل كان أناس صالحون : « ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر » .

أحبهم قوم .. وغالوا في حبهم ..

حتى أنهم بعد موتهم .. أقاموا لهم « التماثيل » فصارت من بعد أصناماً[2] .

وهكذا .. هوى الباطل .:. حتى عبد الناس الحجارة !

وجاء نوح .. ليدعو إلى الحق :

﴿ أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ﴾[3] .

﴿ ما لكم لا ترجون لله وقارا .. ﴾[3] .

ولكنهم أعرضوا .

﴿ قال نوح رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ومكروا مكرا كبارا ﴾[3] .

---

(١) المائدة : ٢٧ — ٣١ .

وقد جاء في ذلك روايات عديدة .. نذكر منها :

قال السدى عن ابن عباس وعن ابن مسعود « أنه كان لا يولد لآدم مولود إلّا ومعه جارية ، فكان يزوج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر ، ويزوج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر ، حتى ولد له اثنان يقال لهما : هابيل وقابيل ، وكان قابيل صاحب زرع ، وكان هابيل صاحب ضرع ، وكان قابيل أكبرهما وكان له أخت أحسن من أخت هابيل وأن هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل فأبى عليه ، وقال : هى أختى ولدت معي وهي أحسن من أختك ، وأنا أحق أن أتزوج بها ، وأمهما قربا قربانا إلى الله عز وجل أيهما أحق بالجارية .. « جذعة ، سنبل » فنزلت النار فأكلت قربان هابيل « علامة القبول » وتركت قربان قابيل « علامة عدم القبول » فغضب وقال لأقتلنك حتى لا تنكح أختى ، فقال هابيل : ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ . ابن كثير — المختصر — جـ ١ ص ٥٠٦ . وراجع روايتين أخريين .

(٢) رواه البخارى عن ابن عباس — وكذا عن عكرمة وقتادة والضحاك .

(٣) نوح : ٣ ، ١٣ ، ٢١ .

﴿ وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا . وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا .. ﴾(١) .

ومن بعد نوح إبراهيم :

حطم لهم الأصنام وقال لهم ﴿ بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾(٢) .

وتدرج بهم من الشك ليصل بهم إلى اليقين ﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برىء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين ﴾(٣) .

وواجه أباه ــ وهو مشرك .. واجهه بالحق الذي يدحض الباطل بأسلوب لين كريم يصل إلى القلب ، ويعذر إلى الله ألا يصد عن الحق بما ينفر القلب ﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً . إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا . يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سويا . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا . يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا ﴾ .

ويفقد الأب « الضال » الحجة .. فيلجأ إلى التهديد بالقوة شأن أصحاب الباطل والضلال في كل زمان ومكان .

﴿ قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا .. ﴾ .

---

(١) نوح : ٢٤ .

وراجع في ذلك ابن كثير ــ المختصر ص ٥٥٤ ، وقد سبق الإشارة إلى رواية البخاري .

(٢) الأنبياء : ٦٣ .

(٣) الأنعام : ٧٦ ــ ٧٩ .

فيرد أبو الدعاة رداً حانياً لكنه لا يتخلى عن الحق :

﴿ **سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً** ﴾ « نهى الله عنه بعد ذلك » ﴿ **وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا** ﴾[1] . ويموت أبو إبراهيم على الكفر والضلال ، ويبقى إبراهيم رائداً للحق والهدى .. رغم ما ناله من عنت ، وصد ، وأذى ...

وتتكرر القصة مرة أخرى بين محمد « عليه الصلاة والسلام » ابن إبراهيم وبين عمه « أبو طالب الذي في مقام والده » وتنتهي نفس النهاية ويسجل القرآن ذلك ، ويقرر الأصل الثابت .. أن لا رحم بين كفر وإيمان ، بين حق وباطل ، ﴿ **ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم** ﴾ .

﴿ **وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلَّا عن موعدة وعدها إياه[2] فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم . وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون إن الله بكل شيء عليم** ﴾[3] .

ثم يأتي « موسى » نضرب به مثلا أخيرا :

« موسى » الذي يمثل الحق .. المنزل من عند الله ..

يتربى في حجر فرعون .. الذي يمثل الباطل في أعتى افتئاته .

﴿ **قال فرعون يأيها الملأ ماعلمت لكم من إله غيرى فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين. واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون** ﴾[4] .

﴿ **اذهب إلى فرعون إنه طغى . فقل هل لك إلى أن تزكى . وأهديك إلى ربك فتخشى . فأراه الآية الكبرى . فكذب وعصى . ثم أدبر يسعى . فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى** ﴾[5] .

---

(١) مريم : ٤٣ — ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ .

(٢) أى عن وعد من إبراهيم لأبيه ، وهو قوله له لأستغفرن لك .

(٣) التوبة : ١١٣ ، ١١٥ .

(٤) القصص : ٣٨ ، ٣٩ .

(٥) النازعات : ١٧ ، ٢٤ .

هذا فرعون .. قمة الباطل ، قمة الضلال ، قمة الكفر .
يواجهه موسى .. الأعزل بالحق الذي معه .

فماذا يحدث ؟

﴿ فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين . وألقى السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون ﴾[1] .

فيلومهم فرعون أن لم يستأذنوا في الإيمان ؟! .

﴿ قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم . إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون ﴾[2] .

ويمضي إلى التهديد الرخيص الذي يمارسه كل طاغية لئيم :

﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين ﴾[3] .

« بم يرد الحق هذا الباطل » .

﴿ قالوا إنا إلى ربنا منقلبون . وما تنقم منا إلّا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين ﴾[4] .

« وفي مكان آخر إجابة مشابهة لكنها أقوى دلالة على الإيمان الحق الذي ملأ ، بل ملك القلوب » :

﴿ قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى ﴾[5] .

ويأتي في الختام سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) الأعراف « ١١٨ ـــ ١٢٦ » .
(٥) طه : ٧٢ ، ٧٣ .

نزل إليه الحق ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾(١) .

فصدع بالحق ... ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾(٢) .

وواجه الباطل ... بالأسلوب اللين الكريم ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدىً أو فى ضلال مبين . قل لاتسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون . قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ﴾(٣) .

ويمضى الصراع ... فيكذبونه ... ويصفونه بالسحر ، والجنون ..... ثم يؤذونه ويؤذون أصحابه .

ثم يقاتلونه والذين آمنوا معه .

... كل ذلك انتصارا لباطل ، هُمْ بِهِ أول العالمين ، ودحضا لحق هم به كذلك عارفون : ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون . الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴾(٤) .

﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين .. ﴾(٥) .

ومن خلال هذا القصص الحكيم بين لنا القرآن كيف ينتهي الصراع .. كيف ينتهي صراع الحق والباطل ..

ومع ذلك يضرب الله لنا الأمثال .. لنتأكد لدينا النتيجة التي علمناها من خلال القصص .. فيخاطب العقول والقلوب بأكثر من طريق :

فأما الأول ففي قوله تعالى :

﴿ قل من رب السماوات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار . أنزل من السماء ماء فسالت

---

(١) الإسراء : ١٠٥ .

(٢) الحجر : ٩٤ .

(٣) سبأ : ٢٤ — ٢٦ .

(٤) البقرة : ١٤٦ ، ١٤٧ .

(٥) البقرة : ٨٩ .

أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ﴾[1] .

وفيه يشبه رب العالمين الحق بالماء : بما يحمل من خير وحياة . .

كما يشبهه بالمعدن النفيس أو المعدن المفيد ..

ويشبه الباطل بالزبد يطفو على الماء بما يحمل من غثاء ، أو بالخبث يطفو حين يدخل المعدن النفيس النار .

كذلك يضرب الله الحق والباطل .. فماذا تكون النتيجة .

فأما الزبد فيذهب جفاء لا قيمة له ... كما يذهب الباطل ومعناه لغة الذاهب الزائل .

وأما ما ينفع الناس « وهو الماء والمعدن النفيس » فيمكث في الأرض كما يمكث الحق على الأرض ــ كذلك يضرب الله الأمثال .

وأما **المثل الثاني** ففى قوله تعالى :

﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ﴾[2] .

فقد صَوَّر الحق قذيفة ... يطلقها الله الحق ... ليصيب بها الباطل في دماغه فتزهقه وتهلكه !

وإذا كان هذا هو الصراع بين الحق والباطل ...

فإن السؤال الذي يطرح نفسه ... لم يعرضون عن الحق .. ويلجأون إلى الصراع ؟ .

٣ ـ لم الإعراض عن الحق ؟

تقدمة :

الحق باق ، والباطل زائل ...

الحق هدى ، والباطل ضلال ...

(١) الرعد : ١٦ ، ١٧ .

(٢) الأنبياء : ١٨ .

الحق طهر ، والباطل رجس ...
فلم يتركون « الباقي » إلى « الزائل » .. ؟ .
لم يعرضون « عن الهدى » ويقبلون على الضلال .. ؟ .
لم يرفضون « الطهر » ، ويقبلون « الرجس » و « الغثاء » ؟ .
تلك أسئلة نحاول بمشيئة الله أن نجيب عليها .. لنعلم لم الإعراض عن الحق ..!

— وللإجابة عن السؤال نفترض فروضاً ثلاثة :

أولها : أنهم لا يعلمون الحق ... فهم عنه معرضون ..!
وثانيها : أنهم يعلمون الحق ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم .. !
وثالثها: أنهم بين هذا ، وذاك ...

﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ﴾(١) .

ونتناول كل فريق بكلمة إن شاء الله :

أولا : الذين لا يعلمون الحق :

وهؤلاء .. الذين لم تَبْلُغْهم الدعوة **﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾** أو بَلَغَتْهُمْ ولكنها بَلَغَتْهُمْ مشوهة ... فكأنهم كذلك لا يعلمون ! .

وأكثر هؤلاء من الكافرين المشركين ... ذاك ما ينبىء به القرآن .

﴿ أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ﴾(٢) .

وهؤلاء يرجع عدم علمهم بالحق إلى عدة عوامل :

١ ـــ **أن هذا الحق « لُبس عليهم بالباطل »** فلم يتبينوه ولذا كان تساؤل القرآن **﴿ ياأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل ﴾**(٣) وكان أمره لفريق منهم « اليهود »

(١) النور : ٤٨ ، ٤٩ .
(٢) الأنبياء : ٢٤ .
(٣) آل عمران : ٧١ .

﴿ **ولا تلبسوا الحق بالباطل ...** ﴾[1] وهذه لعمري من أخبث طرق الصد عن سبيل الله ، وطمس الحق ... وهي نفسها الطريقة التي تتبع حديثاً من المستشرقين .. حين يأتون بشيء من الحق ثم يلبسون به الباطل ، كأن يثنوا على رسول الله ﷺ ، ثم يوردون عنه أنه أحب ابنة عمه « زينب بنت جحش » وهي متزوجة من مولاه « زيد بن حارثة » وأخفى ذلك ، حتى إذا طلقها الأخير « أو أجبره الرسول على طلاقها » تزوجها ، وكأن هذا الرسول الكريم .. واحد من بني جنسهم الذين ينزو بعضهم على بعض بغير عاصم من دين ولا خلق ولا تقاليد ! .

وكأنه ﷺ ليس معصوماً من المعاصي حتى يقع في هذه الدنيئة ! مع أنه ﷺ هو الذي زوج مولاه زيداً بابنة عمه الشريفة وكانت أمامه ولو أرادها لفعل ! ولكن رب العالمين شاء أن يشرع إبطال التبني « بمعنى بطلان » ، وإبطال تحريم زواج زوجة المتبني ، فكان أن أُمِرَ به رسول الله ﷺ وتردد الرسول ﷺ برهة مخافة التقول عليه فنزل القرآن يحثه على الإسراع في التنفيذ كما بين من سياق الآيات ! .

وهكذا لبس الباطل بالحق في هذه وفي غيرها ... الأمر الذي يتقنه أهل الكتاب وبالأخص يهودهم ! .

٢ ــ أن هذا الحق « كتم » فلم يصل إلى الناس :

وفي هذا جاءت بقية الآيات التى أشرنا إليها :

﴿ **يأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون** ﴾[2] .

﴿ **ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون** ﴾[3] .

وكتمان الحق هنا .. مع العلم يشكل الجحود الذى سنشير إليه بعد قليل **لكن النتيجة هي عدم الوصول ...**

---

(١) البقرة : ٤٢ .

(٢) آل عمران : ٧١ .

(٣) البقرة : ٤٢ .

والكتمان في الحالة السابقة من أهل الكتاب ، واللفظ فيه الخطاب واضح إلى أهل الكتاب .

لكن نصوصاً أخرى أدانت كل كتمان ... ولو كان ممن تسموا بأسماء المسلمين وذلك في عبارة عامة تشمل أولئك وهؤلاء ! .

﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾(١) .

فهكذا يكتب الله « اللعنة » والطرد من رحمته على كل كاتم للحق أياً كان لكنه يفتح أمامه باب التوبة لعله « يفىء » ويشترط عليه أن يُبيِّن **﴿ إلَّا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم ... ﴾**(٢) .

وبعد ذلك بآيات **يغلظ القول** ، **ويغلظ العقاب** ، **لفريق من الكاتمين ... لأنهم يتلقون مقابلاً لهذا الكتمان « ثمناً قليلا » ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ﴾** « واللفظ عام وشامل لكل كاتم لما أنزل الله » **﴿ ويشترون به ثمناً قليلا أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار ﴾**(٣) .

٣ ـــ أما الحالة الثالثة .. فهى **افتراض انتفاء « العمد »** في عدم الوصول . فلا يكون عدم الوصول عمداً إلى الكتمان ، أو عمداً إلى التلبيس ، ولكنه يكون عن « **إهمال** » من الدعاة إلى الله ، وإهمال حكوماتهم ، أو عن غير إهمال .. لبعد المكان أو تقطع الوسيلة مثل ما ساق الفقهاء من افتراضات(٤) .

ثانيا : أنهم يعلمون الحق وهم عنه معرضون :

وهذا شأن الجاحدين .. كفاراً كانوا أو أهل كتاب !

---

(١) البقره : ١٥٦ .

(٢) البقرة : ١٦٠ .

(٣) البقرة : ١٧٤ .

(٤) حين تحدثوا عمن يوجد فى قلعة محاصرة أو جزيرة لا تصل إليها السفن أو في مكان ناء ... أو غير ذلك .

﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا ﴾(١).

﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾(٢).

﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾(٣).

وهنا يرد التساؤل .. إذا كانوا يعلمون الحق فلم يكتمون ، ولم يجحدون ؟! وقد نجد الإجابة عن هذا السؤال فيما جاء في الآية الأولى :

ــ ظلما ، وعلوا ... عدوانا ، وتجبرا ، وتكبرا شأن إبليس اللعين :

﴿ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾(٤)، **﴿ أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾**(٥) ، وشأن من بعده من الأباليس الصغار : شياطين الإنس والجن شأن فرعون لما رأى الآيات .. هدد وتوعد .. وقال **﴿ .. ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى ﴾**(٦) .

ــ خوفا على المناصب .. والجاه .. والسلطان .

وتجيب عليها هذه القصة من السيرة :

قال ابن إسحاق : حدثنى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى أنه حدث ، أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق بن عمرو ابن وهب الثقفى ، حليف بنى زهرة ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلى من الليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون

---

(١) النمل : ١٤ .
(٢) الأنعام : ٣٣ .
(٣) البقرة : ١٤٦ .
(٤) ص : ٧٦ .
(٥) البقرة : ٣٤ .
(٦) طه : ٧١ .

له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود ، فتعاهدوا على ذلك .. ثم تفرقوا فلما أصبحوا .. خرج الأخنس بن شريق حتى أتى أبا سفيان بن حرب فى بيته فقال أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : يا أبا ثعلبة ،والله لقد سمعت أشياء أعرفها ، وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها ، قال الأخنس وأنا والذى حلفت به ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه فى بيته ، فقال يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت ؟! قال :

تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف .. أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسى رهان ، قالوا منا نبى يأتيه الوحى من السماء (!) فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه ! فقام عنه الأخنس وتركه[1] .

ثالثاً : يعلمون الحق .. ويعرضون ويذعنون :

وقد كان يمكن أن يوضع هذا الفريق مع الفريق الثاني لولا أن رب العالمين خصه بالذكر هنا .. وخصه بالذكر قبل ذلك .

فقد خصه بالذكر هنا — أى في هذا المجال — بقوله :

﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ﴾[2] .

— إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم — وهم يظنون أنه لن يحكم لهم لعلمهم بأنه يحكم بالحق — إذا فريق منهم معرضون ... ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله .. ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه .

— وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين .

---

(١) سيرة ابن هشام .
أوردها ظلال القرآن — ج ٧ ص ١٠٧٤ .

(٢) النور : ٤٧ — ٤٩ .

كما وصفهم في مكان آخر ﴿ **فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون** ﴾(١) .

ــ وهؤلاء رغم أنهم كارهون لحكم الله ورسوله ، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فقد سبق الإشارة إلى أنهم يقولون آمنا بالله وباليوم الآخر ... ومن ثم فظاهر أمرهم الإسلام ، وباطن أمرهم الكفر والنفاق ... وعلى ذلك استحقوا أن يكونوا فريقاً ثالثاً غير الفريقين المتقدمين ...

ــ وقد خصوا بالذكر قبل ذلك حين قدم لنا القرآن نماذج الدنيا : مؤمن ، وكافر ، ومنافق في صدر سورة البقرة ، وخص الفريق الثالث بالوصف الطويل ، الذي جاء في مقدمته نفس الوصف الذي جاء هنا مع فارق في الألفاظ ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ...** ﴾(٢) .

هنا إيمان بالله وباليوم الآخر .. قولاً .

وهناك إيمان بالله وبالرسول وطاعة ... قولاً كذلك .

وهنا ﴿ **وما هم بمؤمنين** ﴾ .

وهناك ﴿ **وما أولئك بالمؤمنين** ﴾ .

ومن ثم ... كانت حقيقتهم واحدة ...

كان حديث البقرة عن تقسيم « عام » .

وكان حديث النور تطبيقا لهذا التقسيم لكنه كذلك عام اللفظ وإن قيل في مناسبة ما يفيد خصوص السبب(٣) .

ثم يرد التساؤل عن « الباعث » وراء هذا المظهر « المريب » ﴿ **أفي قلوبهم**

---

(١) التوبة : ٥٨ .

(٢) البقرة : ٨ .

(٣) قال الطبري وغيره : أن رجلاً من المنافقين اسمه بشر كانت بينه وبين رجل من اليهود خصومة في أرض ، فدعاه اليهودي إلى التحاكم عند رسول الله ، ﷺ ، وكان المنافق مبطلاً ، وقال إن محمداً يحيف علينا ، فلنحكم كعب بن الأشرف ، فنزلت الآية فيه .

وقيل نزلت في المغيرة بن وائل من بني أمية ، كان بينه وبين علي بن أبي طالب رضى الله عنه خصومة في ماء وأرض فامتنع المغيرة أن يحاكم علياً إلى رسول الله ﷺ وقال إنه يبغضني فنزلت الآية ــ ذكره الماوردي .

« راجع القرطبي ــ ج ١٢ ص ٢٩٣ » .

مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله .. ﴾[1] .

وأياً كانت الإجابة وأيا كان نوع السؤال[2] فإن الإجابة الدامغة في كل الأحوال :

﴿ بل أولئك هم الظالمون ﴾ .

ظلموا أنفسهم .. إذ أعرضوا عن حكم الله .
ظلموا أنفسهم .. إذ رفضوا .. « الحق » من ربهم .
ظلموا أنفسهم .. إذ جروها إلى العذاب .. الذي ينتظر الظالمين .

﴿إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴾[3] .

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾[4] .

٤ ـ كيف يدفعون الحق ؟

تقدمة :

للباطل مكره ، وله التواؤه ، لكنه مع مكره والتوائه قد يلجأ إلى العنف وللإرهاب لمواجهة تيار الحق الزاحف ...

فلقد يرى في البداية محاولة « الاحتواء » .
وقد يلجأ إلى التأويل والتحريف والتلبيس والكتمان .
ثم يلجأ إلى الإعراض والتكذيب .
وقد يلجأ إلى الفتنة ... « والفتنة أشد من القتل » .
وأساليب الفتنة كثيرة منها ما هو ناعم الملمس .

---

(١) النور : ٥٠ .

(٢) قال الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ إن السؤال الأول للإثبات ، والسؤال الثاني للتعجب ، والسؤال الثالث للاستنكار .

(٣) سورة الكهف : ٢٩ .

(٤) قال القرطبي في معنى بل أولئك هم الظالمون : المعاندون الكافرون لإعراضهم عن حكم الله ج ١٢ ص ٢٩٤ . والآية سورة المائدة : ٤٥ .

ومنها ما هو خشن الملمس يصل إلى التعذيب والتقتيل .

وهى في هذا وذاك فتنة وصد عن سبيل الله !

ونحاول أن نتناول هذه الأساليب بشيء من التفصيل والله المستعان .

أولاً : محاولة الاحتواء :

أول ما يفكر « الظلمة الفجرة » يفكرون في الاحتواء ... ويحيطونه بما أوتوا من مكر ودهاء .. أو ما يظنونه كذلك .. بينما يرى الحق بنور الله ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين .

وإذا أردنا من سيرة رسول الله ﷺ مثلا :

ما روى(١) أن عتبة بن ربيعة — وكان سيداً — قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله أن يقبل بعضها ،.فنعطيه أيها شاء ، ويكف عنا ؟ — وذلك حين أسلم حمزة رضى الله عنه ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ — يكثرون ويزيدون — فقالوا : بلى يا أبا الوليد قم فكلمه .

فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال يابن أخي : إنك منا حيث علمت من البسطة في العشيرة والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها .

قال فقال له رسول الله ﷺ : قل يا أبا الوليد أسمع .

قال : يا ابن أخي ، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر **مالاً جمعنا لك من أموالنا** حتى تكون أكثرنا مالاً ، **وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا** حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء ، وبذلنا فيها أموالنا

---

(١) قال ابن إسحاق : حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظى قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة ... « الظلال ج ٧ ص ١٠٧٥ » .

حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يدلوي منه ... أو كما قال .. حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال :

أفرغت يا أبا الوليد ؟!

قال : نعم .

قال : فاستمع مني .

قال : أفعل .

قال : « **بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ..﴾**[1] ثم مضى رسول الله ﷺ فيها وهو يقرؤها عليه ، فلما سمع عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره ، معتمداً عليهما ، يستمع منه ، حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال :

قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك !

فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ! فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد — قال :

ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها لي ، خلوا بين الرجل وما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي قال به نبأ ، فإن تصبه العرب كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه .

قال : هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم » .

وفي الحديث نشرت في بعض الصحف والمجلات إحدى الوثائق الخطيرة الصادرة عن أحد كبار المفكرين الأمريكيين المتخصصين في شئون الشرق

---

(١) فصلت : ١ — ٤ .

الأوسط(١) إلى إحدى جهات المخابرات يطلب في مقدمتها الكف عن « وسائل القمع والإرهاب التي اتبعت في عهد « ..... » لا حباً للجماعة المسلمة التي تشير إليها الوثيقة ولكن لأن هذه الوسائل « قد أدت إلى تعاطف جماهير المسلمين وإقبال الشباب عليها مما أدى إلى نتائج عكسية » وبعد المقدمة اقترح حلولاً بديلة من أهمها :

بالنسبة للشخصيات القيادية التي لا يتقرر التخلص منها فننصح باتباع ما يلي :

أ ــ تعيين من يمكن إغراؤهم بالوظائف العليا ، حيث يتم شغلهم بالمشروعات الإسلامية الفارغة المضمون وغيرها من الأفعال التي تستنفذ جهدهم ، وذلك مع الإغداق عليهم أدبياً ومادياً ، وتقديم تسهيلات كبيرة لذويهم ، وبذلك يتم استهلاكهم محلياً وفصلهم عن قواعدهم الجماهيرية .

ب ــ العمل على إيجاد فرص عمل بعقود مجزية في البلاد العربية البترولية الأمر الذي يؤدي إلى بعدهم عن النشاط الإسلامي ...

وبالنسبة للشباب ــ تركز على ما يلي ــ :

تعميق الخلافات المذهبية والفرعية وتضخيمها في أذهانهم .

تفتيت التجمعات والجماعات الإسلامية المختلفة وبث التنازع داخلها وفيما بينها .

استمرار المؤسسات التعليمية في مختلف مراحلها في حصار الجماعات الإسلامية والتضييق عليها والتقليل من نشاطها (٢) .

وفي التعليق على « الاحتواء » كتب أحد الكتاب(٣) :

« وأعترف .. لقد نجحت هذه الوسيلة أكثر من نجاح الأخرى .. فلقد

---

(١) د . ريتشارد ميشيل ــ وكان يعمل مستشاراً بسفارة مصر ، وبعد الإعلان عن الوثيقة المذكورة أعلن عن أنه أستاذ للتاريخ بإحدى الجامعات الأمريكية .

(٢) عن كتاب ــ دعاة لا بغاة للمؤلف ــ ص ١٥٩ وما بعدها .

(٣) صاحب دعاة لا بغاة ص ٩٥ وما بعدها .

سقط أمامها كثيرون لم يسقطوا أمام القهر والإرهاب .. وشهدت سقوط بعضهم سقوطاً سريعاً وذريعاً .. وذكروني بإخوة لهم سقطوا من قبل ، وسجل القرآن سقوطهم :

﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾(١) .

وصورة أخرى تكررت :

﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ... ﴾(٢) .

وصدق رسول الله ﷺ :

« والله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتتنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم .. »(٣) .

ثانيا : التأويل والتحريف والتلبيس والكتمان :

للتأويل معان عدة(٤) :

نعنى منها في هذا المقام :

اتباع المتشابه بقصد النيل من المحكم « وتمييع الدين » والتشكيك فيه ،

---

(١) التوبة : ٧٥ ــ ٧٧ .

(٢) الأعراف : ١٧٥ .

(٣) أخرجه البخاري في الجزية ٤ / ١١٨ . ومسلم فى الزهد ٤ / ٥٣ رقم « ٢٩٦١ » وأخرجه غيرهما غيرهما .

(٤) قال صاحب قاموس القرآن « أو إصلاح الوجوه والنظائر » الدامغاني : يأتي التأويل على خمسة أوجه :

١ ــ التأويل بمعنى الملك .. فقد ذهب البعض إلى أن المقصود بقوله تعالى : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله =

واختلال الناس والأمثلة كثيرة :

ــ ما فعله القرامطة والزنادقة طعناً على القرآن ، وإباحة للمحرمات .

ــ ما فعله المجسمة ... إذ جمعوا من متشابه القرآن ما ظاهره الجسمية حتى ليظن أن الله جسم مجسم وصورة مصورة ــ تعالى الله عما يقولون علواً كبيرا .

ــ ما فعله صبيغ بن عسل الذي قدم المدينة يسأل عن متشابه القرآن ، فبلغ ذلك عمر ، فأحضره وقد أعد له .. فلما جاء سأله من أنت : قال : عبد الله صبيغ فقال له وأنا : عبد الله عمر ، ثم أمسك بعرجون فضربه على رأسه حتى شجه ، ثم تابع ضربه حتى سال دمه على وجهه ، فقال : حسبك يا أمير المؤمنين فقد والله ذهب ما كنت أجد في رأسي !(1) .

ــ وفي الحديث : يؤول البعض عدم تطبيق حد السرقة عام الرمادة ، ومنع المؤلفة قلوبهم أيام عمر من سهمهم ... يؤولونه ... بإمكان إيقاف بعض الأحكام ... أو بعبارة صريحة تعطيل حدود الله ... ويقولون أن ذلك يدور مع المصلحة ... وهو تأويل فاسد !

فعدم التطبيق جاء عام الرمادة لتخلف بعض شروط التطبيق وهو وجود الشبهة لقول الرسول عليه الصلاة والسلام « ادرءوا الحدود بالشبهات ما استطعتم »(2) وإيقاف سهم المؤلفة قلوبهم جاء لتخلف « علة » الحكم وهو ما عبر

= والراسخون فى العلم ﴾ سورة آل عمران : ٧ . إن هذا عن منتهى ملك محمد ، ﷺ وأمته .

« وقال الطوسي نزلت في وفد نجران ولا صلة لها باليهود ــ وقال نزلت في المتشابه والذى فيه ما يعلمه الناس وفيه ما لا يعلمونه » .

٢ ــ التأويل بمعنى ما وعد الله من الخير والشر يوم القيامة ﴿ هل ينتظرون إلّا تأويله يوم يأتي تأويله ﴾ سورة الأعراف : ٥٣ « وقال ابن كثير حقيقة ما أخبروا به من أمر الميعاد » .

٣ ــ التأويل بمعنى تعبير الرؤيا ــ كما ورد في سورة يونس .

٤ ــ التأويل بمعنى الألوان ﴿ لا يأتيكما طعام ترزقانه إلّا نبأتكما بتأويله ﴾ يوسف : ٣٧ . يعنى بألوانه .

٥ ــ التأويل بمعنى تحقيق ﴿ ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل .. ﴾ يوسف : ١٠٠ .

(1) الجامع لأحكام القرآن ج ٤ ص ١٤ ، ١٥ .

(2) المقاصد الحسنة للسخاوى ص ٣٠ (٤٦) . وقد أخرجه الترمذي بلفظ « إدرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإن كان به مخرج فخلوا سبيله ، فإن الإمام إن يُخطِىء في العفو خير من أن يخطىء في العقوبة » الحدود ٦ / ١٩٨ [شرح ابن العربي المالكى » .

عنه عمر رضى الله عنه بأن الإسلام قد عز(١) .

وأمثال هذا التأويل كثير .. خاصة ممن اتخذوا مهنة العلم أو الدين تجارة !

أما التحريف(٢) :

فقد ورد ذكره في القرآن مقترناً بالكلم أو الكلام ، ووصفاً على فئة من أهل الكتاب أتقنت هذه المهنة المنحرفة .. كما أتقنت غيرها من ألوان الانحراف ، وذكر التحريف مقترناً بالكلم يعني قصره على هذا النطاق .. ليبقى تحريف المعانى داخلاً في معنى التأويل .

وقد كان « اليهود » يحرفون التوراة ... ليبعدوا منها ما لا يحبون ... ومن بعد ذلك تخصصوا في تحريف ... الحروف !

فكان منها قولهم لرسول الله ﷺ : السام عليكم آكلين لحرف اللام .. ومعناه بعد حذف اللام « الموت » ... وقد كان رسول الله ﷺ يرد عليهم : « وعليكم » ، أو « عليكم مثل ما قلتم » ! .

وكان من تحريفهم الذي أشار إليه القرآن : قولهم راعنا !(٣) .

ويبقى التحريف بعد ذلك علماً على كل انحراف بكلمات الله بعيداً عن قصدها البين وهدفها الواضح ولفظها الجلى .

أما التلبيس والكتمان :

فقد سبق فيهما الحديث عندما تحدثنا لم الإعراض عن الحق ... فتحدثنا عن نتيجة التلبيس والكتمان ... من ناحية وقوع الإعراض عن الحق ... لكننا نتكلم

---

(١) راجع رداً لنا على مقال لفضيلة د . النمر حول المصلحة ـــ مجلة الدعوة .

(٢) التحريف لغة : التغيير وقد ورد « يحرفون » مقترناً بالكلم ثلاث مرات « النساء : ٤٦ ، المائدة : ١٣ ، ٤١ » ومقترناً بكلام الله مرة واحدة ثم يحرفونه « البقرة : ٧٥ » ووجد اشتقاقان في القرآن ﴿ متحرفاً لقتال ﴾ « الأنفال : ١٦ » ، ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ الحج : ١١ . وهما ليسا في نفس المعنى الذي نتحدث فيه ـــ والله أعلم .

(٣) أما قولهم راعنا .. فأصلها من الرعاية وهى النظر في مصالح الإنسان ، وقد حرفها اليهود فجعلوها مسبة مشتقة من الرعونة وهى الحمق ولذا نهى عنها المؤمنون « صفوة التفاسير جـ١ ص ١٥ » ـــ وفي هذا يقول رب العالمين ﴿يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب..﴾ آل عمران : ٧٨ .

هنا ليس عن النتيجة ولكن عن المقدمة .

إن التلبيس ... هو الخلط ... خلط الحق بالباطل فينطلي على العامة ويضل به الناس .

أما الكتمان ... فهو محاولة طمس الحق ... وعدم إظهاره وعدم وصوله . وهذا وذاك كان يحدث من أهل الكتاب ... ليدحضوا به الحق ... وهو الآن ... لا زال يحدث من أهل الكتاب خاصة مبشريهم ومستشرقيهم ومع هؤلاء ... أولئك الذين رضوا بأن يكونوا من أهل الكتاب سلوكاً واعتقاداً ، أو ساروا خلف أهل الكتاب حذو النعل بالنعل !

وفي عبارة عامة جمع الله بين هؤلاء وأولئك ... ليكتب على الجميع اللعنة وسوء الحساب ، وبئس القرار ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ...** ﴾[1].

﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم** ﴾[2] .

وعلى ذلك :

فالتأويل ، والتحريف ، والتلبيس والكتمان ...

كل هذه ... تقع على معالم الحق ... محاولة « تمييعه » أو « تحريفه » أو تلبيسه وخلطه ، أو منعه وحجبه ...

كل ذلك كراهية للحق ودفعاً له ... في لفظه أو في معناه أو في أصله وجوهره ...

وقد تنفق على ذلك الملايين صداً عن سبيل الله ، وابتغائها عوجاً لكن العاقبة للتقوى : ﴿ **إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون . ليميز الله**

---

(١) البقرة : ١٥٩ .

(٢) البقرة : ١٧٤ .

الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعًافيجعلــه في جهنم أولئك هم الخاسرون ﴾[1] .

ثالثا : الإعراض والتكذيب :

لعلنا نتدرج ... مع سبل مدافعة الحق ...

بدأنا بمحاولة الاحتواء ثم انثنينا إلى التأويل فالتحريف ، فالتلبيس فالكتمان ...

ونحن الآن نرى الباطل يواجه الحق ... يواجهه بالإعراض والتكذيب .

أما الإعراض ...

فقد يكون عن غير علم ... إذا لبس الحق أو كتم أو حرف فلم يتبينه الناس وقد يكون عن علم ... فيتدرج من الإعراض القلبى إلى الإعراض الفعلى إلى الإعراض القولى ...

وقد يتحقق « كال » الإعراض عن الحق ..

وقد يجري « التذبذب » بين الإعراض والإذعان كما قدمنا .

بيد أنه إذا تحقق الإعراض .. إعراض القلب ، فإعراض الفعل ، فإعراض القول فإنه يكون التكذيب .

وهو الذي جاء قريناً لكفر السابقين :

﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ﴾[2] .

﴿ كذبت قوم عاد المرسلين ﴾[3] .

﴿ كذبت ثمود المرسلين ﴾[4] .

﴿ كذبت قوم لوط المرسلين ﴾[5] .

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد .. ﴾[6] .

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم ﴾[7] .

---

(١) الأنفال : ٣٦ ، ٣٧ .
(٢) الشعراء : ١٠٥ .
(٣) الشعراء : ١٢٣ .
(٤) الشعراء : ١٤١ .
(٥) الشعراء : ١٦٠ .
(٦) ص : ١٢ .
(٧) غافر : ٥ .

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود .. ﴾(١) .
﴿ إن كل إلّا كذب الرسل فحق عقاب ﴾(٢) .

ـــ وهو الذى جاء قريباً لكفر قريش كما أعرضت .
﴿ وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم ﴾(٣) .

ـــ وهو الذي أسماه رب العالمين جحوداً .
﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾(٤) .

ـــ وفضلاً عما ذكر رب العالمين عن مصير الأقوام السابقة لما كذبوا ، فقد جاءت نصوص عامة تبين نتيجة التكذيب :

فى الدنيا : حبوط الأعمال والخسران وفقدان الرؤية **﴿ صم وبكم فى الظلمات ﴾**(٥) والفسوق والهلاك .

وفي الآخرة .. عذاب ، ونار ، وخسران !

رابعاً : الفتنة :

وهذه أشد أنواع الصد عن سبيل الله .. وهى نوعان :

فتنة بالخير . وقد تقدم الحديث عن أكثرها عند الحديث عن الاحتواء ...

وفتنة الشر .. وهى التى أخرنا الحديث عنها إلى هذا المكان .
ولا ندرى إذا خير الإنسان بين الفتنتين فأيها يختار :

ـــ إن قوماً ينجحون في فتنة الخير ... فإذا هم شاكرون ... لا ينجحون في فتنة الشر فإذا هم غير صابرين .

---

(١) ق : ١٢ .
(٢) ص : ١٤ .
(٣) فاطر : ٢٥ .
(٤) الأنعام : ٣٣ .
(٥) الأنعام : ٣٩ .

ـــ وإن أناسا ينجحون فى فتنة الشر فإذا هم صابرون وصامـدون لكنهم في فتنة الخير يرسبون ويسقطون ، فإذا هم أخلدوا إلى الأرض ، واتبعوا الهوى ، وأحبو « البنين والبنات » « والنساء والشهوات » ، والمناصب والجاه والسلطان وغرتهم الدنيا ، وغرهم بالله الغرور ...

فنسوا الماضي .. ونسوا الله ... فأنساهم أنفسهم ... أولئك هم الفاسقون .

وفتنة الشر ليست هينة ...

إن العذاب أشد وأقسى من الموت .. ؛ لأن صاحبه يتمنى الموت ولا يناله ولذا فإنه يوم القيامة ﴿ **لا يموت فيها ولا يحيىٰ** ﴾ .

ولقد حكى القرآن عن قوم « فتنوا بالشر » واحتملوا العذاب ، فشقت لهم الأخاديد وأضرمت لهم النيران ، وألقوا فيها أحياء .

وحكى عن فرعون ، وآل فرعون ﴿ **يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم** ﴾(١) .

وحكت السنة عن قوم « ينشرون بالمناشير من مفرق الرأس إلى أخمص القدم » ويمشطون بأمشاط الحديد ما دون اللحم والعظام فما يصدهم ذلك عن سبيل الله(٢) ...

ـــ وشهد العصر الحديث من فراعنة الطغيان(٣) .. ما جدد ذكريات الأمس البعيد بل إن منهم « شياطين » فعلوا أكثر مما فعل أجدادهم الفراعين !

ـــ ولذا كتب الله على هذا اللون من البشر ﴿ **عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق** ﴾ .

---

(١) البقرة : ٤٩ .
(٢) الحديث خرجه البخاري في المناقب ٤ / ٢٤٤ . وأبو داود في الجهاد ٣ / ١٠٨ « ٢٦٤٩ » .
(٣) راجع في الزنزانة ـــ عندما يحكم الطغاة ـــ دعاةلا بغاة ـــ للمؤلف ، وراجع لجابر رزق وكمال الفرماوى « نافذة على الجحيم » .

ـــ وعدهم رسول الله ﷺ من أهل النار ما لم يتوبوا « صنفان من أهل النار لم أرهما ... قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس »(١) .

ـــ وعد رب العالمين الفتنة صداً عن سبيل الله أشد من القتل وأكبر من القتل وكيف لا .. وهى وإن لم تشمل قتل فرد أو أفراد ففيها قتل أمة وموت شعب .

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة ٤ / ٢١٩٢ « ٢١٢٨» .

الفصل الرابع
تعريف المادة ونشأتها وتقسيم موضوعاتها

تعريف :

عرفنا أن الحق والباطل يصطرعان ، وأن أهل الباطل يحاولون دفع الحق ، ومن وسائلهم : محاولة الاحتواء ... أو التأويل والتحريف والتلبيس والكتمان أو الفتنة بلونيها .

وعرفنا ... أن الجدال سلاح .. قد يستخدمه أهل الباطل فهم موزورون[1] بضلالهم وإضْلالهم ، وقد يستخدمه أهل الحق لبيان الحق وجلاء الصواب .. فهم ــ بإذن الله ــ مأجورون بذلك .

والمناظرة في مفهومنا لون من الجدال بالتي هي أحسن بين فريقين وصولاً إلى الحق أو إلى الصواب ، يحاول فيها كل فريق إثبات وجهة نظره مع تخل مُسبَق عن التحيز ، ورغبة صادقة في الوصول .

النشأة :

وأول من وضع قواعد الجدل أرسطو [اليوناني] باعتبارها تابعة للمنطق ، ولم يكن المقصد الأصلي من هذه القواعد بلوغ الحق ، أو كشف الصواب بقدر ما كان إلزام الخصم ، وقد أسمى كتابه [كتاب الجدل][2] .

بيد أنه عند ترجمة الفلسفة اليونانية إلى العربية على العهد العباسي وظهور علم·

(١) عليهم ذنب وإثم .

(٢) راجع التعليق على رسالة آداب البحث ــ أحمد مكى ٣٥٣ هـ ــ ١٩٣٥ م . علم آداب البحث والمناظرة لمصطفى صبرى .

الكلام ، وظهور المذاهب الكلامية ، وانتصار كل مذهب لرأيه ، ظهرت الحاجة إلى قواعد تضبط الخصومة في المجال العلمي فعنى العلماء بالتدوين في فن المناظرة .

وكان أول من دوَّن فى هذا المجال الإمام محمد النردوى المتوفى عام ٤٨٢ هـ لكنه اعتنى بالتدوين في مجال الفقه وكان ذلك في أواخر القرن الخامس الهجري . وظهرت الحاجة إلى قواعد عامة تضبط المناظرة في كل مجال فكان أول من استجاب لهذه الحاجة ركن الدين العميدى المتوفي عام ٦١٥ هـ وكان ذلك في بداية القرن السابع الهجري وأسمى كتابه [الإرشاد] ثم زاد العلماء في هذا المجال كالرازي « ٦٠٦ هـ » والسمرقندي « ٦٠٠ هـ » وتبعهم النّسفي والمرعشي(١) واعتمدت المادة في قواعدها على خليط من القواعد المنطقية ؛ والقواعد الأصولية ... وقواعد مستمدة من علم الكلام .

ما ألف فى هذه المادة :

وقد عثرنا بحمد الله في هذه المادة على مخطوطات كثيرة(٢) :

كما وجدنا فيها مؤلفات عدة(٣) لكننا لاحظنا أنها جميعاً تعتمد قواعد المنطق أساساً لها عدا مؤلف حديث .. حاول أن يجد أساساً لقواعد المنطق المذكورة من آيات الله من كتاب الله أو أحاديث(٤) ؛ وبغض النظر عما دار من خلاف حول

---

(١) المراجع السابقة .

(٢) راجع التعليق على رسالة آداب البحث ــ أحمد مكي ١٣٥٣ هـ ــ ١٩٣٥ م ، وعلم آداب البحث والمنطق ص ٣ ــ لمصطفى صبري .

(٣) راجع (أ) علم آداب البحث والمناظرة ــ تأليف ذي الفطنة والأريحية مصطفى أفندي صبري القاضي بالمحاكم الأهلية . الطبعة الأولى ١٣٣٠ هـ ــ ١٩١٢ م طبع بالمطبعة بمصر .

(ب) رسالة السيد الشريف الجرجاني ، المسماة بالشريفية في البحث والمناظرة عني بنشرها والتعليق عليها : أمين محمد حسني ــ على سالم العبادي [من فرع قسم التخصص بالأزهر] .

(ج) تعليق على الرسالة الموضوعة في آداب البحث ــ الرسالة المذكورة من وضع أحمد مكي ــ شيخ معهد الزقازيق ــ الطبعة الأولى .

(د) آداب البحث والمناظرة ــ محمد أمين الشنقيطي ــ جزءان . من مطبوعات الجامعة الإسلامية ١٣٥٣ هـ ــ ١٩٣٥ م .

(هـ) رسالة الآداب في علم آداب البحث والمناظرة ــ محيى الدين عبد الحميد ١٣٧٨ هـ ١٩٥٨ م .

(٤) ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة ، عبد الرحمن حبنكة الميداني طبعة ثانية ــ مزيدة ومنقحة . دار القلم . دمشق .

المنطق(١) فإننا نعتمد أهم قواعده باعتبارها قواعد عقلية وصلت إلى « المُسَلَّمَات »

(١) نشأ علم المنطق بين اليونانيين ، ويقال إن أرسطو واضع قواعده ، وكان اسم « السوفيست » في البداية أعظم شأناً من الفيلسوف ، لانتمائه إلى ربة الحكمة ، حتى ظهر فيثاغورس وادعى الحكمة وسمى نفسه فيلسوفاً ، ثم جاء بروتاغوراس **Protagoros** وادعى علم كل شيء وعدل اسم الفيلسوف إلى اسم السوفيست ، فغلبت كلمة السفسطة على كل من ادعى هذه الدعوى . وكان ممن هاجموا المنطق ... الإمام الغزالي ، والإمام ابن تيمية وتبعهم الإمام جلال الدين السيوطي .

ويلاحظ الأستاذ عباس العقاد [في كتابه التفكير فريضة إسلامية] أن مناقشة الإمامين الأولين مناقشة تصحيح تنقيحي ، وليست مناقشة هدم للأسس التي يقوم عليها أو تفنيد الأصول التي يرجع إليها ، فهما يريدان إثبات الخطأ على من يسيئون تطبيق القياس والبرهان ولا يريدان محو القياس والبرهان في علم من علوم الدين أو الدنيا ...

— والغزالي يقول في كتابه [المنقذ من الضلال] « إني ابتدأت بعد الفراغ من الكلام بعلم الفلسفة . وعلمت يقيناً أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على مُنْتَهى ذلك العلم حتى يساوي أعلمهم فى أصل العلم ثم يزيد فيطلع على مالم يطلع عليه صاحب العلم ... » وبعد دراسة المنطق رأى الغزالى أن خطأ المناطقة إنما يعتريهم من ناحية التطبيق ، فلا عيب في أصول النظر على استقامة فهمها وصدق الرغبة في المعرفة الصحيحة ، ومن ذلك قوله في كتاب مقاصد الفلاسفة « أما المنطقيات فأكثرها على منهج الصواب والخطأ فيها نادر ، وإنما يخالفون أهل الحق بالاصطلاحات والإيرادات دون المعاني والمقاصد » .

— وابن تيمية يرى أن المنطق سليقة في العقل الإنساني ، يستغني عنه الذكي ولا ينتفع به البليد .

ويقول العقاد « إنه — أى ابن تيمية — كان بصدد إنشاء منطق صحيح وهداية إلى تطبيق أصول المنطق القديمة ، ولم يكن متصديا لهدم المنطق عن أساسه ومن تخطئته لهم فى فهم الحد بين أنه لا يبطل الحد ولكنه يبطل قول القائلين : إن التصور موقوف عليه [راجع التفكير فريضة إسلامية ص ٣٤ — ٦٣] .

ويعرف علم المنطق — بحسب الموضوع — بأنه علم يبحث فيه المعلومات التصورية والتصديقية من حيث أنها توصل إلى مجهول تصوري أو تصديقي [الشيخ محمود فايد في المنطق الواضح مقرر السنة الأولى الثانوية بالمعاهد الدينية] .

ويعرف بحسب الفائدة بأنه علم أو [قانون] تعصم مراعاته الذهنية عن الخطأ في الفكر والمراد بالعلم والقانون القواعد الكلية ، والمراد بالفكر ترتيب أمور معلومة ليتوصل بها إلى مجهول تصوري أو تصديقي .

ويقول فضيلة الشيخ محمود فايد : كتب المناطق تتنوع إلى نوعين :

أحدهما غير مخلوط بضلالات الفلاسفة ، كهذا المتن وكمختصر السنوسي والساغوجي ، وهذا لا خلاف في جواز الاشتغال به ، بل قالوا هو فرض كفاية على كل إقليم ؛ لأنه يتوقف عليه رد الشكوك في علم الكلام وهو فرض كفاية ، وما يتوقف عليه فرض الكفاية فهو فرض كفاية — ومحل ذلك إذا لم يستغن عنه بجودة الذهن وسلامة التفكير ، ولهذا يحتج به الصحابة وغيرهم من أعلام المسلمين .

والثاني : ما هو مختلط بضلالات الفلاسفة : وهو ما يحمل عليه كلام الناظم وفيه خلاف على ثلاثة أقوال :

فقال تقي الدين أبو عمرو عثمان بن الصلاح المتوفي ٥٧٩ هـ ، والإمام محي الدين النووى إنه حرام ، ووافقهما على ذلك الحافظ السيوطي ، وقال الغزالي ومن تبعه إنه مستحب ويروى عنه « من لا معرفة له بعلم المنطق لا يوثق بعلمه » أى الوثوق التام — وهذا معنى قول صاحب السلم [ينبغى أن يعلما] . =

الأمر الذي سبق إليه علماؤنا : لكننا في نفس الوقت ــ ولأول مرة ــ نُدْخِل ــ بحمد الله وفضله ــ قواعد الأصول في هذا الفن ، كما نُدخل بعض القواعد المستمدة من القرآن مراعين في ذلك أن الحوار إما أن يكون طرفاه مؤمنين أو أن يكون أحدهما أو كلاهما غير مؤمن ، فإن كان الفرض الأول .. فقواعد القرآن وقواعد الأصول تعمل ليس فقط في مجال الأصول فإنها بفضل الله صالحة لضبط الأحكام والمناقشات الإسلامية بصفة عامة .

أما قواعد العقل « أو المنطق » فتكون لها المرتبة الثانية بعد قواعد الأصول ، ويلجأ إليها إذا لزم الأمر .

أما إذا كان أحد الطرفين غير مؤمن ــ ومن باب أولى كان الطرفان كذلك ــ فلا عمل لقواعد الأصول ... لأنها غير مسلم بها لدى أحد الطرفين أو كليهما ، ومن ثم يكون العمل للقواعد العقلية أو المنطقية وحدها .

= وبعضهم فسَّر ينبغي بالوجوب كفاية .

وعقب الشيخ محمود فايد : والرأي السديد أنه لا يجوز إلا بكامل العقل المتمكن من الكتاب والسنة حتى يكون بمنجاة من أخطار هذا اللبس .

[المرجع المذكور ص ٧٤٦] وراجع تسهيل المنطق للأستاذ عبد الكريم بن مراد الأثري] .

الباب الثانى

القواعد الشكلية للمناظرة

مقدمــة

الفصل الأول : أركان المناظرة وشروطها

الفصل الثانى : ضوابط المناظرة

الفصل الثالث : آداب المناظرة

الفصل الرابع : مصطلحات فى هذا العلم

مقدمة

المناظرة - كما قدمنا - حوار بين متناظرين بلوغا إلى الحق أو جلاء للصواب ، وهى بهذا لها من الناحية الشكلية أركان ، وشروط ، وضوابط ، وآداب .. كلها تؤدى بها إلى :

أن تكون مناظرة .

وأن تكون بلوغا إلى الحق .

وأن تكون بالتى هى أحسن .

وهذا ما نبينه بمشيئة الله .

الفصل الأول
أركان المناظرة وشروطها

لا بد للمناظرة من موضوع . ولا بد لها من متناظرين ، وهما ركنا المناظرة ولا بد لها من شروط تكمل هذه الأركان وتوضحها .

أولاً : موضوع المناظرة :

إما متعلق بالعقيدة ... مثل المسائل التي خاض فيها علماء الكلام ، أو متعلق بأحكام فقهية .. مثل المسائل التي خاض فيها الأئمة والسلف الصالح ، وإما بموضوعات بين هذه وتلك .. كموضوعات الخلافة ونظام الحكم فهى — بالمعيار الدقيق — مسائل فقهية ، لكن البعض تناولها مع مسائل العقيدة ، إما باعتبار خطورتها ، أو بما حدث عن انحراف فى تصور الإمامة وفى وضعها بين مسائل علم الكلام ، وقد لا يكون الأمر متعلقاً بأحكام العقيدة ، ولا بأحكام فقهية ، بل متعلقاً بمسائل فنية » مما سكت عنها التشريع — كما عبر رسول الله ﷺ رحمة بنا غير نسيان .

والصنف الأول والصنف الأخير من الموضوعات .. أكبر الظن أن ما يستعمل فيهما من قواعد موضوعية أو أدلة ، هى القواعد أو الأدلة العقلية ، أو كما يسميها الآخرون « الأدلة المنطقية » . وأما الموضوعات الفقهية ، سواء كانت منصوصاً عليها ، واحتاجت لإزالة بعض الشبهات عنها ، أو كانت غير منصوص عليها واحتاجت للاجتهاد ، فإن أكثر هذه الموضوعات يحكمها قواعد أصولية مستقاة من علم أصول الفقه ، وهو أهم العلوم الذى تفرد بها الشرق الإسلامى وتفوق على الغرب الصليبى(١) .

(١) يذكر في هذا المجال بعض علوم الحديث — كعلم الجرح والتعديل فقد وضع قواعد الضبط والتعديل بما لم يصل إليه الغرب رغم حضارته وهو علم تفرد به علماء المسلمين ولم يوجد له مثيل فى الغرب الصليبى .

أما الموضوعات فقد يجرى فيها استخدام « الأدلة » أو القواعد الأصولية أو الفقهية ، وقد يجرى استخدام الأدلة أو القواعد العقلية .

أما المتناظران :

فهما طرفان يبغيان بلوغ الحق يسمى البادىء « عارض الموضوع » معلِّلاً ، والمعترض سائلاً .

أو يسمى البادىء « عارض الموضوع » مانعاً ، والمعترض مستدلاً .. وذلك تبعاً لموضوع المناظرة .

وقد يتغير الأمر أثناء المناظرة فينقلب السائل معللا ، والمعلل سائـلا ، أو المانـع مستدلا والمستدل مانعا .

شروط المناظرة :

الشرط الأول : أن يكون المتناظران على علم بموضوع التناظر .

الشرط الثاني : أن يكون المتناظران على معرفة بما يحتاج إليه من قوانين المناظرة وقواعدها ، حول الموضوع الذى يريدان المناظرة فيه .

الشرط الثالث : أن يكون الموضوع مما يجري التناظر فيه .

فالبدهيات والمسلمات لا يجري التناظر فيها .

الشرط الرابع : أن يجرى المتناظران مناظرتهما على عرف واحد ، فإذا كان الكلام على عرف الفقهاء ، فلا يلجأ الطرف الثاني إلى عرف النحاة أو الفلاسفة ونحو ذلك .

الفصل الثانى
ضوابط المناظرة

هذه الضوابط تميز المناظرة عن الجدل المذموم أو السفسطة ، فليس الأمر صاراً لرأى إعجاباً لكل ذي رأى برأيه ، لكنه بحث عن الحقيقة ، وبلوغ إلى صواب ، ومن هنا جاءت هذه الضوابط .

١ ــ تخلي كل من الفريقين عن وجهة نظر مسبقة ، وإعلانهما الاستعداد بل الحقيقة وقد أرشد إليها القرآن ﴿ **وإنا أو إياكم لعلى هدىً أو فى ضلال ن** ﴾(١) .

٢ ــ الامتناع عن الإيذاء والسخرية ، أو البذاءة ، أو الفحش . قال لى ﴿ لا يسخر قوم من قوم ﴾(٢) ... ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾(٣) ... ولا تنابزوا بالألقاب ﴾(٤) ... ﴿ اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن ﴾(٥) .

وقـــال ﷺ « ليس المؤمـــن بالطعـــان ، ولا باللعـــان ، ولا الفاحـــش البذيء »(٦) .

٣ ــ افتراض صحة الجانب الآخر أو مجاراته وصولاً إلى تبكيته ، أما راض صحة الجانب الآخر فإما بحثاً عن الحقيقة حتى يصل ، أو مجاراة للطرف خر إن كان معانداً حتى نوصله للحقيقة . ﴿ **قل لا تُسألون عما أجرمنا**

، سبأ : ٢٤ .
، (٣) ، (٤) الحجرات : ١١ .
، الحجرات : ١٢ .
، أخرجه الترمذي في البر والصلة ٨ / ١٤٩ [شرح ابن العربي المالكي] .

ولا نُسأل عما تعملون ﴾[1] .

أو مجاراته وصولاً إلى تبكيته وإلزامه ﴿ **إن نحن إلَّا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء** ﴾[2] .

٤ ــ التزام الأدلة ... الأصولية أو العقلية ، وتقديمها مؤيدة بالقرآن أو الحديث ، وألا يقدم دليلاً ترديداً لأصل الدعوى ، وألا يطعن إلَّا على الأسس التي يجري عليها التناظر وألا يكون في بعض كلامه ما ينقض الآخر .

٥ ــ التسليم بالمسلمات وقبول النتائج التي توصل إليها الأدلة القاطعة .

---

(١) سبأ : ٢٥ .

(٢) إبراهيم : ١١ .

الفصل الثالث
آداب المناظرة

هذه الآداب مستمدة من أن المناظرة غير المراء أو المجادلة « المذمومة » فهي بلوغ الحق أو كشف الصواب .

وهي من ناحية أخرى تلتزم ما أمر الله به « أن تكون بالتي هي أحسن » وتبتعد عما يتعارض مع الغاية الكريمة والوسيلة الكريمة .

ويمكن أن نجمل ما قاله العلماء في :

أولاً : الآداب :

١ ـــ الترتيب : وهنا نقول بعون الله : إنه لا يحسن الاستعجال فى البحث قبل تمام الفهم ، فإن فى ذلك فائدة للمعلل والسائل على السواء .

أما المعلل : فقد يغير الدليل ، أو يزيد عليه بما يدفع الاعتراض ، أو يحذف فيه ما يوجب الخلل ، أو يدلل على مقدمة نظرية ، أو ينبه على مقدمة خفية ، فيسلم من مناقشة الخصم .

وأما السائل : فربما يخطىء بالاستعجال فيظهر جهله ، وقد يذكر المعلل بعد إقامة دليله ما يظهر به ما خفى على السائل فيكفيه مؤنة البحث . وقد يؤدى استعجال البحث إلى فساد .

٢ ـــ ألّا يهاب وألّا يحقر: بمعنى ألّا يقع فريسة الخوف أو فريسة العُجب ، فكلاهما يؤثر على كفاءته وقد قيل فى الأول : ألّا يناظر من هو أعلى منه مقاماً ، لأنه يؤدى إلى التساهل ، والتسليم له بما يقول خشية منه .

والعبرة فى نظرنا بالأثر النفسى ، فقد لا يترك الأعلى مقاماً أثراً فى نفس المناظر فلا يهابه ، ومن ثم لا يؤثر على قدرته على المناظرة .

٣ ــ ألا يختصر ، وألا يطيل، وألا يخرج عن المطلوب : فالاختصار يخل بالفهم ولا يوصل إلى المطلوب والإطالة تمل السامع فينقطع عن الوصول إلى المطلوب ، والخروج عن موضوع المناظرة يؤدى إلى الانتشار المفوت للمطلوب .

٤ ــ أن يتجنب فى ألفاظه الغريب والمحتمل من غير قرينة ، وكلام السفهاء :
لأن الغريب يكون غير واضح وغير موصل ، والمحتمل من غير قرينة كذلك ، وكلام السفهاء من وظائف الجهال يسترون بها جهلهم .

وأن يكلم كل مقام بما هو وظيفته ، فى علم الكلام يتكلم باليقين المفيد للاعتقاد ، وفى الفقه بالأمارة المفيدة للظن .

٥ ــ الجلوس : جلسة المكترث ، مقابلاً للمناظر ، مقبلاً عليه ، متجنباً أوقات عدم الاعتدال [الجوع ، الامتلاء ، الغضب ، المدافعة] ومتجنباً الضحك ــ الصوت العالى ... وما يزيل الهيبة .

ثانيا : ما لا يجوز للمناظر أن يرتكبه :

١ ــ المصادرة : جعل المطلوب إحدى مقدمتى الدليل[1] بعد تغيير طفيف فى لفظها مثل : هذا أسد ، كل أسد ليث ؛ فهذا ليث . هذه نقلة ، كل نقلة حركة ، هذه حركة .

---

(١) جمعنا تحته ثلاثة أصناف : المكابرة والمعاندة والجواب الجدلى ، ويذكر الآخرون كل صنف مستقلا .

٢ ــ **الغضب** : وهو محاولة إبطال دعوى الخصم قبل أن يقدم الدليل عليها .

٣ ــ **المراء** : وهو جدل ليس لإظهار الحق ، بل لإظهار الفضل . فهى « المكابرة » أو قلب دليل على مقدمة بدهية من مقدمات الدليل[٢] ، أو على عدم فهم كلام صاحبه فهى « المعاندة » ، أو مع اعتقاده بطلان ما يقول .. « الجواب الجدلي » .

---

(١) أحمد مكي ص ٣٨ . مصطفى صبري : علم آداب البحث والمناظرة .

الفصل الرابع
مصطلحات فى هذا العلم

تقدمـــة

وضعنا هذا الفصل تحت هذا الباب .. باعتبار المصطلحات « شكلية » . لأنه يمكن وضع غيرها لأداء معناها ، لكن لعلم مر عليه حتى الآن ثمانية قرون ، فإننا نحتفظ بمصطلحاته لأداء معانيه ، ولا مشاحة فى الاصطلاح . وقد جاء ذكر مصطلحات كثيرة نحاول الجمع بين بعضها مع البعض بجامع اتحادِ الموضوع أو تقاربه . والله أعلم .

أولا : فى الدعوى وأطرافها :

الدعوى : ما يشتمل على الحكم المطلوب إثباته « أى الدليل أو إظهاره بالتنبيه » .

ويسمى : مسألة ونتيجة « وأضاف : ومقدمة »[1] وقاعدة وقانوناً .

المدعى : من نصب نفسه لإثبات الحكم بالدليل أو التنبيه [ويسمى مانعاً ، ويسمى معللاً] .

السائل : من نصب نفسه لنفى الحكم [أو للبحث معه أى مع المدعى][2] سمى كذلك مستدلاً .

الملازمة : كون الحكم مقتضياً الآخر ، والأول يسمى ملزوماً والثانى يسمى لازماً . « يتأتى من وجود الملزوم وجود اللازم » .

---

(١) أحمد مكي ـــ المرجع السابق .

(٢) أحمد مكي ـــ المرجع السابق .

ثانيا : ما يجرى فى المناظرة :

أ ــ **النقل** : الإتيان بقول الغير على ما هو عليه بحسب المعنى مظهراً أنه قول الغير[١] . تصحيح النقل : بيان صدق نسبة ما نسب إلى المنقول عنه .

ب ــ **الدليل** : هو المركب من قضيتين للتأدي « أى بغرض التأدي » إلى مجهول نظري . وإن دكر ذلك لإزالة خفاء البديهي سمى تنبيهاً . وقد يقال للمزوم العلم دليلا [برهانا] وللمزوم الظن أمارة « كالاستقراء والتمثيل » .

مقدمة الدليل : ما يتوقف عليه صحة الدليل .

التقريب : سوق الدليل على وجه يستلزم المطلوب [بأن يفتح الدليل عين المدعى أو مساويه أوالأخص لا الأعم ولا المباين][٢] .

التعليل : يبين علة الشيء .

العلة : ما يحتاج إليه الشيء في ما هيته أو في وجوده « وجميعه يسمى علة تامة » .

جـ ــ **المنع** : طلب الدليل على مقدمة معينة . ويسمى ممانعة ــ ومناقضة ــ ونقضاً تفصيلياً وقد يكون مما يشتق من لفظه كأن يقال : هو ممنوع . وقد يكون غير ذلك كأن يقال : غير مسلم أو لا نسلم بذلك . أو هو مطلوب للبيان أو فيه مناقشة[٣] .

ــ ومن المنع الحل : وهو منع مقدمة مبنية على الغلط مسنداً ببيان منشأ الغلط[٤] .

ــ **السند** : ما يذكر لتقوية المنع متمسكاً بشاهد يدل على عدم استحقاقه للاستدلال به أو ما يتقوى به المنع وهو في زعم المانع[٥] .

---

(١) « ويجوز التصرف فيه بما لا يخرجه عن معناه » ــ أحمدمكى ــ المرجع السابق .
(٢) مكى .
(٣) راجع مكى ص ٢٧ .
(٤) مكى ص ٢٥ .
(٥) مكى ص ٢٨ .

ـــ **تنوير السند** : ما يذكر لإثبات السند أو توضيحه(1).

د ـــ **التبكيت** : بمعنى التوبيخ أو بمعني الغلبة بالحجة(2).

المجاراة التمشي مع الخصم والتساهل معه لتبكيته وإلزامه(3).

ثالثاً : النتيجة :

أ ـــ **الملازمة** : كون الحكم مقتضياً الآخر ـــ والأول ـــ يسمى ملزوماً والثاني لازماً [يتأتى من وجود الملزوم وجود اللازم] .

ب ـــ **الإفحام** : عجز المعلل .

جـ ـــ **الإلزام** : عجز السائل .

---

(1) مكي ص ٢٦ .

(2) مكي ص ٤٠ .

(3) مكي ص ٤٠ .

الباب الثالث

القواعد الموضوعية

توطـئة

الفصل الأول : القواعد الموضوعية المستمدة من القرآن الكريم

الفصل الثانى : القواعد الأصولية المتعلقة بالأدلة والأحكام والدلالات

الفصل الثالث : قواعد منطقية

توطـئة

يحتاج المناظر إلى قواعد موضوعية تحكم المناظرة حتى تصل بها إلى الحق .. وتبعا « لموضوع المناظرة » يكون البحث عن القواعد المناسبة ، وفى مجال الدعوة إما أن تجرى المناظرة حول « أمر شرعى » فيجب بالدرجة الأولى تحرى القواعد القرآنية والأصولية للوصول إلى الحق .

وإما أن تجرى المناظرة حول « أمر عقلى أو عادى » أو لا تسعف القواعد الأصولية فى الاستدلال ، فيكون الالتجاء إلى القواعد العقلية . وفى هذه وتلك .. ينبغى البحث عن القاعدة أو الدليل القطعى فإن وجد وجب التسليم .

وإلا كان البحث عن « غلبة الظن » باعتبار ذلك أقرب إلى الحق .

وحتى نتناول كل نوع على حدة نفرد بإذن الله فصلا للقواعد القرآنية اللازمة فى المناظرة ثم فصلا للقواعد الأصولية .

ثم فصلا آخر للقواعد العقلية « أو المنطقية » اللازمة للمناظرة . والله يهدى إلى الحق وصراط مستقيم .

الفصل الأول
القواعد الموضوعية المستمدة من القرآن الكريم

تمهيـــد :

ـــ قدمنا أن من السلف من هاجم المنطق[1] .

أولاً : باعتباره دخيلاً على العلوم الإسلامية .

فقد كان نتيجة حركة الترجمة التى حدثت على العهد العباسي .

وثانياً : أنه كما قال فيه ـــ ابن تيمية ـــ « يستغني عنه الذكى ، ولا ينتفع به البليد »[2] .

وثالثاً : لما حدث من خلط في كثير من كتبه من ضلالات الفلاسفة ، مما دعا أحد أساتذته الكاتبين أن يصرح « أنه لا يجوز إلَّا لكامل العقل المتمكن من الكتاب والسنة حتى يكون بمنجاة من أخطار هذه الكتب »[3] .

ورابعاً : لما اتسم به هذا العلم من حشو المصطلحات وكثرتها ، وإدخال الرياضيات فيه ، حتى بدا جافاً صعب المنال .

ـــ ويدافع البعض عن المنطق[4] خاصة ما كان غير مخلوط بضلالات

---

(١) ينقل ذلك عن الغزالي وابن تيمية وجلال الدين السيوطي ، ويمكن تعريف المنطق : يعرف بحسب الموضوع بأنه « علم يبحث عن المعلومات التصورية والتصديقية من حيث أنها توصل إلى مجهول تصوري أو تصديقي ، وبحسب الفائدة أنه علم » أو قانون « تعصم مراعاة الذهن عن الخطأ في الفكر ، والمراد بالعلم والقانون القواعد الكلية ، والمراد بالفكر ترتيب أمور معلومة ليتوصل بها إلى مجهول تصورى أو تصديقي « فضيلة الشيخ محمود فايد في كتابه المنطق الواضح » .

(٢) الفتاوى لابن تيمية جـ ٩ .

(٣) الشيخ / محمود فايد ـــ أكرمه الله ـــ .

(٤) الأستاذ العقاد من المحدثين والكثير من علماء الفلسفة في القديم .

الفلاسفة .

فيعتبرونه فرض كفاية من كل إقليم ، إذِ عليه يتوقف رد الشكوك في علم الكلام ، وإذ كان الأخير فرض كفاية فما يتوقف عليه فرض كفاية كذلك بل لقد نقل عن بعضهم « من لا معرفة له بعلم المنطق لا يوثق بعلمه » .

ـــ ولنا أن التوسط خير .

فنحن لا نرفض « المنطق » لمجرد أنه دخيل ، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها .

كذلك لا نصل به إلى حد الوجوب أو القول بأنه من لا معرفة له به لا يوثق بعلمه ؛ لأن الصحابة لم يعلموه ولم يعلّموه ، ولو كان واجباً لم يتركوه ؛ ولأنه يغنى عنه ـــ باعتراف أصحابه ـــ سلامة العقل واستقامته ، ولما اتسم به من الجفاف والتعقيد حتى أنه لينبو حتى عن الخاصة .

ونجد أن الأمثل هو الاستفادة من قواعده الموضوعية الصحيحة التي هى أقرب إلى البدهيات مع تحريرها ـــ بقدر الإمكان ـــ من كثرة المصطلحات ، إضافة إلى ماتقدم من القواعد الشكلية .

لكنا نلفت النظر ـــ إلى أنه من الناحية الموضوعية ـــ توجد قواعد قرآنية مبثوثة في السور والآيات .. تحتاج إلى حصر واستنباط ، وقد حاولنا هذا بدءاً ببعض القواعد على سبيل المثال ، إيذاناً بأن من القرآن ما قد يستغنى به عن المنطق .

١ ـــ البدء من نقطة التقاء :

فليس النقض والهدم سبيلاً إلى النفوس ، إنه لون من الصد عن سبيل الله لا ينبغي أن يقع فيه المسلم المحاور، وكل إنسان ، ولو كان كافراً ، لا يعدم نقطة خير في قلبه يبدأ بها المسلم فيدخل إليها ، أو يدخل منها ، ثم ينميها ويسير بها إلى هدفه الذي يريد[١] .

---

(١) ولعل مما يؤكد ذلك قول رسول الله ﷺ لحكيم بن حزام فيما رواه البخاري « أسلمت على ما سلف من خير » ، وفي رواية مسلم « أسلمت على ما أسلفت من خير » .

وفي التوجيه القرآني ما يؤكد هذه القاعدة :

ـ ﴿ وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾(١).

ـ ﴿ قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألّا نعبد إلّا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوابأنا مسلمون ﴾(٢).

ـ ﴿ وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين . قال فعلتها إذا وأنا من الضالين . ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين . وتلك نعمة تَمُنُّها على أن عَبَّدتَّ بنى إسرائيل ﴾(٣) .

﴿ يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ... ﴾ .
﴿ يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا ... ﴾(٤).

٢ ـ البدء بإثارة العاطفة وتوجيه الاهتمام والخوف عليهم :

ـ ﴿ لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾(٥).

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين . ألا تعبدوا إلّا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم .. ﴾ ..

﴿ ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون .ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون .. ﴾ .

﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ﴾(٦) ...
﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إلـٰه غيره

(١) العنكبوت : ٤٦ .
(٢) آل عمران : ٦٤ .
(٣) الشعراء : ١٩ ـ ٢١ .
(٤) يوسف : ٣٩ ، ٤١ .
(٥) الأعراف : ٥٩ .
(٦) هود : ٢٥ ـ ٣٢ .

ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾ ...

﴿ قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقاً حسناً وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلّا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلّا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قومُ لوط منكم ببعيد ﴾ .

﴿ .... قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربي بما تعلمون محيط ﴾(١) .

ـــ ﴿ وما تنقم منا إلّا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾(٢) .

﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين. قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون . إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين ﴾(٣) .

ـــ ﴿ ياأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها ﴾(٤) .

٣ ـــ التذكير بأنعم الله واللفت لآيات الله في الأنفس والآفاق :

ـــ ﴿ أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله ﴾ نعم الله ﴿ لعلكم تفلحون ﴾(٥) .

---

(١) هود : ٨٤ ـــ ٩٢ .
(٢) الأعراف : ١٢٦ .
(٣) الشعراء : ٤٩ ـــ ٥١ .
(٤) الحج : ١ ، ٢ .
(٥) الأعراف : ٦٩ .

﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سُهُولها قُصُورا وتنحتون الجبال بُيُوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾[1] .

﴿ .. واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴾[2] .

﴿ واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين . وجنات وعيون . إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾[3] .

﴿ أتُتْرَكُونَ في ما هٰهنا آمنين . في جنات وعيون . وزروع ونخل طَلْعُها هَضِيم ﴾[4] .

﴿ أتأْتُونَ الذُّكْرَان من العالمين . وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزْواجكم بل أنتم قومٌ عَادُون ﴾[5] .

﴿ واتقوا الذي خلقكم والجِبِلَّةَ الأولين ﴾[6] .

﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل أفلا تذَكَّرُونَ . قل من رب السماوات السبع وربُّ العرش العظيم . سيقولون لله قل أفلاتتقون . قل من بيده ملكُوتُ كُلِّ شيء وهو يُجِيرُ ولا يُجَارُ عَليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل فأنىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [7] .

﴿ قل الحمد لله وسلام علي عِبَاده الذين اصْطَفَى آللهُ خيرٌ أمَّا يُشركون . أمَّن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بَهْجَةٍ ما كان لكم أن تُنبتُوا شَجَرَهَا أءِلـٰهٌ مع الله بل هم قوم يَعْدِلُون . أمَّن جعل

---

(١) الأعراف : ٧٤ .
(٢) الأعراف : ٨٦ .
(٣) الشعراء : ١٣٢ ــ ١٣٥ .
(٤) الشعراء : ١٤٦ ــ ١٤٨ .
(٥) الشعراء : ١٦٥ ــ ١٦٦ .
(٦) الشعراء : ١٨٤ .
(٧) المؤمنون : ٨٤ ــ ٨٩ .

الأرض قَراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رَوَاسِيَ وجعل بين البحرين حاجزاً أءلٰه مع الله بل أكثرُهم لا يعلمون . أمَّن يُجيبُ المُضْطَرَّ إذا دعاه ويكشفُ السُّوءَ ويَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الأرض أءلٰه مع الله قليلاً ما تذكرون . أمن يهديكم في ظُلُمات البر والبحر ومن يُرْسِلُ الرياح بُشْراً بين يدى رحمتِه أءلٰه مع الله تعالى الله عما يشركون . أمن يَبْدَؤُا الخَلْقَ ثم يعيده ومن يَرْزُقُكُمْ من السماء والأرض أءلٰه مع الله قل هاتوا بُرْهانكم إن كُنْتُم صادقين ﴾(١) .

﴿ ولقد كذب الذين من قبلكم فكيف كان نكير . أَوَلَمْ يَرَوْا إلى الطَّيْرِ فوقهم صَافَّات ويَقْبِضْنَ ما يُمْسِكُهُنَّ إلَّا الرَّحْمٰنُ إنَّهُ بِكُلِّ شيءٍ بصير . أَمَّن هذا الذي هو جُنْدٌ لكم يَنْصُرُكم من دون الرحمٰن إن الكافِرُونَ إلَّا في غُرُور . أَمَّن هذا الذي يَرْزُقُكُمْ إن أَمْسَكَ رِزْقَهُ بل لَجُّوا في عُتُوٍّ وَنُفُورٍ . أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا على وجْهِهِ أهدى أَمَّن يمشي سوياً على صراط مستقيم . قل هو الذي أَنْشَأَكُمْ وجعل لكم السمعَ والأبصارَ والأَفْئِدَة قليلاً ما تشكرون . قل هو الذي ذَرَأَكُمْ في الأرض وإليه تحشرون . ويقولون متى هذا الوعْدُ إن كُنتم صادقين . قل إنما العلم عند الله وإنَّما أنا نذير مبين ﴾(٢) .

٤ ـــ البدء « بصدمة » تفيق :

وأغلب الظن أنها بالنسبة لمن ران على قلوبهم « فاحتاجوا إلى ما يزيل هذا الران أو طمست عقولهم فاحتاجوا إلى ما يُفِيقُهم .

﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعْبُدُوا الله ما لكم من إلٰه غَيْرُهُ أفلا تَتَّقُون ﴾(٣) .

﴿ قال قد وقع عليكم من ربكم رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي في أسماء سَمَّيْتُمُوها أنتم وَآبَاءُكُمْ ما نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فانتَظِرُوا إنِّي معكم من المُنْتَظِرين ﴾(٤) .

﴿ وإلى عاد أخاهم هُوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره إن

(١) النمل : ٥٩ ـــ ٦٤ .
(٢) الملك : ١٨ ـــ ٢٦ .
(٣ ، ٤) الأعراف : ٦٥ ـــ ٧١ .

أنتم إلَّا مُفْتَرُونَ . يا قوم لا أسألكم عليه أجْراً إن أجْرِيَ إلَّا علَى الذي فَطَرني أفلا تعقلون . ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَولوا مجرمين ﴾(١) .

وهذه كانت في حق من قال فيهم :

﴿ وتلكَ عَادٌ جَحَدُوا بآيات ربهم وَعَصَوْا رُسُلَهُ واتَّبَعُوا أمر كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . وأُتبعوا في هذه الدنيا لَعْنَة ويوم القيامة ألا إنَّ عاداً كَفَرُوا ربهم ألا بُعْداً لعاد قوم هود ﴾(٢) .

وفي هذا المعنى قول الله :

﴿ وإذ قالت أمَّة منهم لِمَ تَعِظُونَ قوماً الله مُهْلِكُهُمْ أو مُعَذِّبُهُم عَذَاباً شديداً قالوا مَعْذِرَة إلى ربِّكم ولعَلَّهُم يَتَّقون ﴾(٣) .

وقد قيل في قوله تعالى :

﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ... ﴾(٤) إن الدعوة بالحكمة تعني تغيير الأسلوب حسب المقام فمن أصلحته الكلمة الطيبة فلا يصار إلى غيرها ، ومن أصلحته الكلمة الخشنة فهي الحكمة في هذا الموضع ــ والله أعلم .

ــ ومنها **﴿ ياأيها الناس اتقوا ربكم إن زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شيء عظيم . يوم ترونها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أرضعت وتَضَع كل ذات حَمْلٍ حَمْلَهَا وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾**(٥).

ومنها : **﴿ ياأيها الناس اتقوا ربكم واخشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والدٌ عن وَلَدِه ولا مولود هو جَازٍ عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تَغُرَّنَّكُم الحياة الدنيا ولا يَغُرَّنَّكُمْ بالله الغرور ﴾**(٦) .

ومنها ما فعله الرسول ﷺ حين صارع أحد المشركين « ركانة » الذي كان

---

(١) هود : ٥٠ ــ ٥٢ .
(٢) هود : ٥٩ ، ٦٠ .
(٣) الأعراف : ١٦٤ .
(٤) النحل : ١٢٥ .
(٥) الحج : ١ ، ٢ .
(٦) لقمان : ٣٣ .

يظن في نفسه قوة فصرعه الرسول ﷺ . فدخل الإسلام .

ـــ بل إن الصدمة أحياناً تَلْزَم المؤمنين :

﴿ يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهْلِيكم ناراً وَقُودُها النَّاسُ والحجارة عليها ملائكة غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ الله ما أمرهم ويَفْعَلُونَ ما يؤمرون ﴾(١) .

٥ ـــ الدعوة إلى إعمال النظر فى رفق وأدب :

ـــ **﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا .. ﴾**(٢). أى أدعوكم إلى واحدة .. قيل خصلة واحدة ..

أو كلمة واحدة .. هي لا إله إلّا الله .. أو هى القرآن « باعتبار الكلمة جنساً » .

أن تقوموا .. أى للحق .. **﴿ كونوا قوامين بالقسط ﴾**(٣).

لله مثنى وفرادى .. أى مجتمعين ومنفردين .. أو متشاورين أو من غير تشاور .. أو المثنى عمل النهار والفرادى عمل الليل .

ثم تتفكروا : دعوة إلى التفكر ..... إن وقفنا عليها .... مطلق التفكر فى النفس والآفاق .... مما يفضى إلى التوحيد وهو منهج قويم فى الحوار .

أن تترك خصمك يصل إلى الحق الذي تريد مما يظن معه أنه هو الذي اكتشفه فيكون أكثر إقبالاً وأكثر استمساكاً .

ومنه : **﴿ قل من يَرْزُقُكُم من السماء والأرض.قل الله وإنا أو إياكم لعلى هُدىً أو في ضلال مبين . قل لا تُسألون عَمَّا أجْرَمْنَا ولا نُسْأَلُ عمَّا تعملون . قل يَجْمَعُ بيننا ربنا ثم يَفْتح بيننا بالحق وهو الفتَّاح العليم ﴾**(٤) .

---

(١) التحريم : ٦ .
(٢) سبأ : ٤٦ .
(٣) النساء : ١٣٥ .
(٤) سبأ : ٢٤ ـــ ٢٦ .

فقد سألهم عمن يرزق .
ثم أجابهم أنه الله .
ثم جعل تقريراً فيه احتمالان : إما أن يكونوا على هدى أو في ضلال أى أحد الغريمين على هدى والآخر على ضلال ، وهو يدعو إلى التفكر .

ثم جعل خياراً آخر .
﴿ قل لا تُسْأَلُون عما أَجْرَمْنا ولا نُسْأَل عَمَّا تعملون ﴾ .

ولئن كان الإجرام بمعنى الكسب ..
فلقد كان فى استعماله فى جانب المؤمنين ، وجعل العمل فى جانب الكافرين .. إما لونا من المساواة حيث لا تجب ففيه مجاملة للفريق الآخر — أو لونا من التآليف يجعل الفعل الأقرب إلى الخطأ فى جانبهم كما تقول تواضعا قد أكون مخطئا ..

وهذا لون من أدب الحوار جميل ،
وهو موضوعيا .. يرد المخطىء إلى الصواب .
ويرد المبطل إلى الحق .. إرشاد رب العالمين .
وفى النهاية ..
يترك الأمر للتفكير ..
ويترك الحساب ليوم الحساب .
﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا ﴾ يحكم بيننا **﴿ بالحق وهو الفتَّاح العليم ﴾** وفي حوار إبراهيم مع الكافرين الذين يعبدون الأصنام :

﴿ ما تعبدون قالوا نعبد أصناماً فَنَظَلُّ لها عاكفين . قال هل يَسْمَعُونكم إذ تَدْعُون . أو ينفَعُونكم أو يضُرُّون ﴾[1] .

... فيها إيقاظ لضمائرهم وعقولهم ودعوة إلى إعمال النظر فيما هم فيه .

فلما لم يفلح لجأ إلى وسيلة عملية لإفحامهم ، نناقشها في الفقرة الأخيرة .

(١) الشعراء : ٧٠ — ٧٣ .

٦ ـ الانتهاء عن الحوار عند اللجاجة :

ويَضْرِب لها مثلاً حوار إبراهيم مع النمرود :

﴿ **ألم تر إلى الذي حاجَّ إبراهيم في ربِّه أنْ آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربِّيَ الذي يُحْيِي ويُميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فَبُهِتَ الذى كفر والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾(١).

فقد حاج إبراهيم في ربه .

فقال له إبراهيم صفة من صفات الله لا يشترك معه فيها أحد ﴿ **ربي الذي يحيى ويميت** ﴾ .

فإذا بالخصم يصل إلى اللجاجة بل الوقاحة فيقول أنا أحيى وأميت ... وراح يفسرها تفسيراً هزيلاً حين حكم على اثنين بالإعدام ثم عفا عن واحد ونفذ في الثاني .

فحاجه إبراهيم بآية كونية لا يستطيعها خروجاً من هذا المراء :

قال إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فأفحم وبهت .

ومنها توجيه رب العالمين .

﴿ **ولا تَسبُّوا الذين يدعون من دون الله فَيَسبُّوا الله عدواً بغير علم** ﴾(٢) ومنها ﴿ **وإذا رأيت الذين يَخُوضُون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وأما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين** ﴾(٣).

ـ ﴿ **وقدنزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فلا تَقْعُدُوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً** ﴾(٤).

---

(١) البقرة : ٢٥٨ .
(٢) الأنعام : ١٠٨ .
(٣) الأنعام : ٦٨ .
(٤) النساء : ١٤٠ .

وعندما يصل الأمر إلى حد الخوض والاستهزاء .. فإن الأمر لا جدوى منه فقد وصل إلى حد اللجاجة ، ومن ثم فإنهاء الحوار بالإفحام — كما تقدم — أو بالقيام كما أشارت النصوص السابقة هو الأولى من البقاء !

٧ — السَّبْر والتقسيم :

بحصر الأوصاف للموضوع الذي يجري الجدال فيه ، ثم بيان عدم وجود وصف من هذه الأوصاف تسوغ قبول الدعوى ، فتبطل دعوى الخصم .

ذكر السيوطي من أمثلة ذلك « في الإتقان » ﴿ **ثمانية أزواج من الضَّأْن اثنين ومن المَعْزِ اثنين ...** ﴾ .

وقوله : ﴿ **ولا تقولوا لما تَصِفُ أَلْسِنَتكم الكذبَ هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يَفْتَرون على الله الكَذِبَ لا يفلحون** ﴾[1] .

٨ — الاستفهام التقريرى :

وهو الذي يعتمد على مقدمات بينة :

﴿ **ألم نجعل له عينين** ﴾[2] ...

﴿ **أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم** ﴾[3] .

﴿ **أم خُلِقُوا من غير شيء أم هم الخالقون** ﴾[4] .

ومنها بقية قصة إبراهيم مع قومه لما لم يصل معهم إلى نتيجة بالحوار الهادىء — كما تقدم — لجأ إلى حل عملي ﴿ **فجعلهم جُذَاذاً إلَّا كَبِيراً لهم لعلَّهم إليه يَرْجِعُون . قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتىً يذكرهم يقال له إبراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون** ﴾ .

وهنا كان الإفحام :

---

(١) النحل : ١١٦ .

(٢) البلد : ٨ .

(٣) يس : ٨١ .

(٤) الطور : ٣٥ .

﴿ **قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون** ﴾ .

فكانت النتيجة :

﴿ **فَرَجَعُوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نُكِسُوا على رُءوسِهم لقد عَلِمْتَ ما هؤلاء يَنطِقُون** ﴾ .

ثم كان التقريع :

﴿ **قال أفَتَعْبُدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون** ﴾(١) .

فلجئوا إلى غير المحاورة إلى أسلوب الغاشمين الضالين .

﴿ **قالوا حرِّقوه وانصُروا آلهَتَكُم إن كُنْتُم فاعلين** ﴾ .

فتدخلت إرادة رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما .

﴿ **قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم** ﴾(٢) .

---

(١) الأنبياء : ٥٨ ــ ٦٧ .

(٢) الأنبياء : ٦٨ ، ٦٩ .

الفصل الثانى

القواعد الأصولية المتعلقة بالأدلة والأحكام والدلالات

المبحث الأول

مقدمات

المقدمة الأولى :

... قواعد الأصول قطعية ...

لأنها إما دل عليها الاستقراء المفيد للقطع

أو دلت عليها أصول عقلية ... قطعية

أو جمع بين هذا وذاك .

ــ بيد أنه ينبغي ــ في مجال الأصول ألا يستند إلى القواعد العقلية وحدها .. إلَّا أن تكون الأخيرة مستندة إلى غيرها من « الكليات الشرعية » .

ــ وعلى ذلك فالأدلة العقلية إذا استعملت في هذا المجال فإنما تستعمل : مركبة على الأدلة السمعية « مثل الإجماع والقياس » .

أو معينة في طريقها « التخصيص » .

أو محققة لمناطها « السَّبر والتقسيم للعلة » .

ــ ويرد في ذلك كذلك .. أن تضافر مجموعة أدلة على أمر .. يفيد القطع ، ولو كان كل دليل على حدة ظنياً ؛ لأن للاجتماع من القوة ما ليس للافتراق . ولهذا يفيد التواتر القطع ، والتواتر المعنوى يفيد القطع كذلك ؛ ولهذا فالإجماع قطعي ؛ لتضافر أدلة عدة على حجيته .

المقدمة الثانية :

... لا ينبغي الخوض فيما لا ينبني عليه عمل ..

عمل قلبي « من أعمال القلب : الحب ، الخوف ، الرجاء »
أو عمل جارحي « الأعمال الصالحة المبلغة إلى رضوان الله » .
ـــ دل على ذلك استقراء الشريعة

﴿ **يسألونك عن الأهلة** ﴾ لم يجب عن الأهلة كنهها وكيفيتها وإنما أجاب بعملها ﴿ **قل هي مواقيت للناس والحج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها** ﴾[1] .

« فكأن السؤال إتيان البيوت من ظهورها ، والله يأمر أن تؤتى البيوت من أبوابها » .

﴿ **ويسألونك عن الساعة أيان مرساها** ﴾[2] كانت الإجابة ﴿ **فيم أنت من ذكراها** ﴾[3] ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ..** ﴾[4] .

ونزل قوله ﴿ **لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم** ﴾[5] .

« وقال ابن عباس في بني إسرائيل لو ذبحوا بقرة ما لأجزأتهم ولكن شددوا فشدد الله عليهم » .

« ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم »[6] .
« إن الله كره قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال »[7] .
« إن من أعظم الناس جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته »[8] .

« إذا علم الشيء من غير تفصيل ففي التفصيل تكلف « فالأب الوارد في الآية » ﴿ **وفاكهة وأبا** ﴾[9] عد عمر علمه تكلفاً ما دام أنه علم من سياق الآية أنه نوع من الطعام .

---

(١) البقرة : ١٨٩ .
(٢ ، ٣) النازعات : ٤٢ ، ٤٣ .
(٤) الإسراء : ٨٥ .
(٥) المائدة : ١٠١ .
(٦) الحديث أخرجه مسلم في الحج ٢ / ٩٧٥ « ١٣٣٧ » .
(٧) البخاري ومسلم وأبو داود .
(٨) الشيخان وأبو داود .
(٩) عبس : ٣١

.. **ولأن كل علم شرعى طلب الشارع له من حيث هو وسيلة للتعبد لله تعالى .**

ـــ لما سبق

ـــ ولأن هذا هو المقصود من بعثة الأنبياء

ـــ ولأن الأدلة على أن روح العلم العمل :

« تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعملوا »[1] .

« وسئل عن الشهوة الخفية فقال الرجل يتعلم العلم يريد أن يجلس إليه[2] » .

.. **والعلم المعتبر شرعاً هو العلم الباعث على العمل .**

فأهل العلم على ثلاث مراتب :

ـــ الطالبون له ولما يحصلوا على كماله « فهم من رتبة التقليد » .

ـــ الواقفون منه على براهينه « ارتفاعاً عن حَضيض التقليد » .

ـــ الذين صار لهم العلم وصفاً ثابتاً « الراسخون في العلم » .

« إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ، ولكن يقبض العلماء » .
إلى أن قال :

« اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسُئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا »[3] .

ـــ وقال على « رضى الله عنه » .

« يا حملة العلم اعملوا به ، فإن العالم من علم ثم عمل ، ووافق علمه عمله ، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يتجاوز تراقيهم ، تخالف سريرتهم علانيتهم ، ويخالف علمهم عملهم يقعدون حلقاً يباهى بعضهم بعضا »[4] .

ـــ وقال الثورى :

« العلماء إذا علموا عملوا ، فإذا عملوا شغلوا ، فإذا شغلوا فقدوا فإذا فقدوا

---

(١) سبق تخريجه ص ١٣ .

(٢) سبق تخريجه ص ١١ .

(٣) أخرجه البخاري في العلم ١ / ٣٦ . ومسلم في العلم ٤ / ٢٠٥٨ « ٢٦٧٣ » ورواه غيرهما .

(٤) سبق تخريجه ص ١٤ .

طلبوا ، فإذا طلبوا هربوا »[1] .

ـــ وقال قتادة في قوله تعالى ﴿ **وإنه لذو علم لما علمناه** ﴾ لذو عمل لما علمناه[2] .

ـــ الحسن « كنا نطلب العلم للدنيا فجرنا للآخرة »[3] .

ـــ مالك « ليس العلم بكثرة الرواية ، ولكنه نور يجعله الله في القلوب »[4] .

.. وأنواع العلم :

أ ـــ ماهو من صلب العلم : وهو ما كان قطعياً أو راجعاً إلى أصل قطعى وله خواص ثلاثة :

العموم والاضطراد .
الثبوت من غير زوال .
كونه حاكماً لا محكوماً

ب ـــ ما كان من مُلَح العلم :

ليس قطعيا ولا راجعاً إلى أصل قطعي .
بل إلى ظنى أو قطعى تخلفت بعض خواصه
مثل : الحِكَم المستخرجة لما لا يعقل معناه خاصة التعبدات .
التأنق في استخراج الحديث من طرق كثيرة لا على قصد طلب تواتره « استخراج من مائتى طريق ـــ أن يدخل في ألهاكم التكاثر » .

الاستناد إلى الأشعار في تحقيق المعاني العلمية والعملية .

---

(١) ابن عبد البر ٢ / ٨ .
(٢) الدر المنثور ٤ / ٢٦ .
(٣) جامع بيان العلم وفضله ٢ / ٢٣ .
(٤) مرجع سابق ٢ / ٢٥ .

جـ ـ ما ليس من الصلب ولا من الملح :

وهو ما لا يستند إلى قطعي ولا ظني

وإن مال إليه قوم فلشبه وتخيل لا حقيقة له مع ما ينضاف إليه من الأهواء كالإغراب باستجلاب غير المعهود والجعجعة بإدراك ما لم يدركه الراسخون ، كادعاء الباطنية علم الحروف وعلم النجوم وصولاً إلى إخراج كتاب الله عن ظاهره بما يدعيه المعصومون !

المقدمة الثالثة :

إذا تعاضد العقل والشرع فعلى شرط أن يكون العقل تابعاً والشرع متبوعاً .

ـ لأنه لو صح للعقل تخطى الشرع لم يكن للحد الذي حده الشرع فائدة .

ـ ولما هو ثابت(١) من أن العقل لا يحسن ولا يقبح ولو تعدى لكان كذلك .

ـ ولقول الله : ﴿ **لا تقدموا بين يدى الله ورسوله** ﴾(٢) .

ـ ولأنه لو جاز ، لجاز إبطال الشريعة بالعقل .

المبحث الثانى

قواعد متعلقة بالأدلة الشرعية

الأدلة الشرعية في مجال الأصول هى :

القرآن ، السنة ، الإجماع ، القياس ، الاستحسان ، المصالح المرسلة ، العرف ، شرع من قبلنا ، مذهب الصحابي « أو رأى الصحابي » .

والأربعة الأولى متفق عليها عند الجمهور

والباقي مختلف عليه

ولن نكرر ما تسرده كتب الأصول حول هذه الأدلة أو المصادر ، ولكننا

(١) في علم الأصول وعلم الكلام خلافاً للمعتزلة .

(٢) الحجرات : ١ .

نأخذ منها القواعد الهامة موضع الاتفاق ـــ بقدر الإمكان ـــ والتي قد تلزم المناظر في مجال الأحكام العملية .

ـــ وقبل أن نمضى إلى التفصيل نشير إلى أن الأدلة الشرعية كلها ترد إلى الوحى ، وعلى وجه خاص إلى القرآن .

فالسنة أصلها القرآن ـــ كما يرد بمشيئة الله ـــ

والإجماع لا بد له من دليل ، والدليل مرده إلى الكتاب والسنة ، فضلاً عن أنه يستمد حجيته من الكتاب والسنة .

والقياس إلحاق واقعة ليس لها نص بواقعة أخرى فيها نص .. والنص من الكتاب والسنة .

والمصلحة المرسلة ـــ كما سيرد ـــ هى كالقياس فعل المجتهد ، ومن ثم فهى وسيلة لاستكشاف ما في الكتاب والسنة من معان للقياس عليها وهكذا ...

أولا : القرآن

القاعدة الأولى : القرآن يَتَقَدَّم ولا يُتَقَدَّم عليه :

١ ـــ لأنه من عند الله بلفظه ومعناه ، ولا يجوز التقدم على الله .

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ﴾(١) **﴿ وكلمة الله هى العليا ﴾**(٢) وكلمة اسم جنس جامع لكلماته فكلماته هى العليا ... فلا يعلو عليها شيء .

٢ ـــ ولأن الله تكفل بحفظه .

﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾(٣) .

وكان مصداق ذلك حفظه في صدور الرجال ، وفي الصحف وفي جريد وفي

(١) الحجرات : ١ .

(٢) التوبة : ٤٠ .

(٣) الحجر : ٩ .

لخاف ... إلخ ... على عهد رسول الله ﷺ ولما كثر القتل يوم اليمامة زمن الصديق « وقتل من القراء حوالى سبعمائة » أشار عمر على أبي بكر بجمعه ، فكلف زيد بن ثابت بذلك(١) .

ثم جمع عثمان الناس على مصحف واحد ، وحرق غيره .

وتوالى الحفظ في الصدور وفي السطور ، حتى وصلنا القرآن محفوظاً بأمر الله ، على نحو متواتر ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** ﴾(٢) .

وهناك طريق حفظ ثالث :

هو حفظ مبادئه وأحكامه .. متمثلاً في سلوك الرجال وثباتهم واستمساكهم مصداق قول رسول الله ﷺ .. « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم « أو خالفهم » حتى يأتي نصر الله وهم كذلك »(٣) .

٣ ــ القرآن قطعي .

لحفظه وتواتره صار قطعي الورود .

وهو ــ وحده ــ من مصادر الإسلام الذي يتسم بالقطعية ، أما السنة فجزؤها المتواتر قطعي « وقد يلحق به المشهور عند الأحناف » أما ما عدا ذلك « الآحاد » فظني الورود ــ وهو الكثرة الكاثرة من السنة .

وبالنسبة للدلالة فقد جمعت آيات القرآن بين الثبات والمرونة ، الثبات متمثلاً في مساحة الآيات القطعية الدلالة ، وهى المساحة الأكبر ، والمرونة متمثلة في مساحة الآيات الظنية الدلالة ، وهى المساحة الأقل ، والأولى تمثل أصول العقيدة « أو أصول الدين » وأصول الأحكام ، ثم الأحكام التي لا تتغير بتغير الأزمان والأمكنة ، كأحكام الميراث والمحرمات وغيرها ..

٤ ــ القرآن فوق الدستور : سواء كان الدستور وضعيا . أو مستمداً من

---

(١) في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر خذوا القرآن عن أربع : ابن أم عبد « عبد الله بن مسعود » ومعاذ ابن جبل ، وأبي بن كعب وسالم مولى حذيفة .

وراجع الجامع لأحكام القرآن ٤٩ وما بعدها .

(٢) فصلت : ٤٢ .

(٣) أخرجه مسلم فى الإمارة : ٣ / ١٥٢٣ « ١٩٢٠ » .

مبادىء الإسلام .

لأن الدستور ــ ومن باب أولى القانون ــ صنع بشر والقرآن كلام الله ! ولأنه لا يتعرض للتغيير أو التعديل كما يجرى للقوانين والدساتير . ولأن ذلك مقتضى « حاكميته » وهو مايفضى إلى القاعدة الثانية .

القاعدة الثانية : لا شرعية في غيبة الكتاب :

لا شرعية لتصرف ، ولا لقول ، ولا لقرار ، ولا لنظام يصادم كتاب الله ، أو لايعترف بكتاب الله أو لا يستمد من كتاب الله . ذلك ما عنيناه بقولنا لا شرعية في غيبة الكتاب .

أما لماذا ؟

ــ فلأن وظيفة القرآن الأولى هى أنه نزل ليحكم .

﴿ كتاب أنزلناه إليك لتُخرِج الناس من الظُلُمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العَزيزِ الحميد ﴾[1] .

﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناس بما أراك الله ﴾[2] .

﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله .. ﴾[3] .

﴿ إن الحُكْمُ إلَّا لله .. ﴾[4] .

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾[5] .

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾[6] .

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾[7] .

﴿ آلمَص . كتاب أُنزل إليك فلا يكن فى صدرك حَرَج منه لِتُنذِرَ به وذكرى للمؤمنين . اتبعوا ما أُنزِل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تَذَكَّرُون ﴾[8] .

---

(1) إبراهم : ١ .
(2) النساء : ١٠٥ .
(3) المائدة : ٤٩ .
(4) يوسف : ٤٠ .
(5) المائدة : ٤٤ .
(6) المائدة : ٤٥ .
(7) المائدة : ٤٧ .
(8) الآيات « ١ ، ٢ ، ٣ » من سورة الأعراف .

قد وردت آيات أخرى بصيغ تؤكد هذا المعنى .

ـــ ولأنه خاتم الكتب نزل على خاتم النبيين .

ومن ثم فهو مصدق لما بين يديه من الكتاب ومهيمنٌ عليه ولا يتصور وقوع آخر له بعد أن نزل ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ت لكم الإسلام ديناً** ﴾(١) .

ـــ ولأنه المصدر الأول والرئيسي للأحكام فلا نتصور شرعية في غيبته .

ـــ والخروج الجزئي كالخروج الكلي سواء بسواء ويأتي بيان ذلك .

ـة الثالثة : القرآن هو القرآن كله :

من ثم فلا يقبل التجزئة ولا التفرقة :

ـــ ﴿ **وتؤمنون بالكتاب كله** ﴾(٢) .

﴿ **واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك** ﴾(٣) .

﴿ **وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره ..** ﴾(٤) .

﴿ **أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض** ﴾(٥) .

ـــ ولأن أوامر الله سواء « وكذا نواهيه » .

توقيرها من توقير رب العالمين .

﴿ **ومن يُعَظِّم شَعائر الله فإنَّها من تَقْوَى القُلوب** ﴾(٦) .

التفرقة بين بعضها البعض تحكم ليس هناك ما يبرره .

بالنسخ . لكنه: أ ـــ بالنسبة لما قيل فيه يمكن التوفيق ، والتوفيق أولى ب ـــ بالنسبة للعقيدة لم يقع نسخ جـ ـــ بعد وفاة الرسول ﷺ لم يعد هناك احتمال للنسخ إذ انقطع الوحى .

ـع نسْخ التلاوة مع الحكم ، وتسْخ التلاوة دون الحكم ص ١١٠ من المشروعية .

عمران : ١١٩ . (٣) المائدة : ٤٩ .

راء : ٧٣ . (٥) البقرة : ٨٥ .

ج : ٣٢ .

ولأن الله لا يُجوز التفرقة بين رسله ، ولا أحسبها مقبولة بين كتبه **﴿ كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ﴾**[1] **﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا ﴾**[2] .

وإذا لم تجز التفرقة بين الرسل ولا بين الكتب ، فإن التفرقة بين ما جاء به الرسول الواحد من كتاب واحد يكون أشد ـــ والله أعلم .

ـــ والتفرقة أو التجزئة قد تأتى فى الإيمان ، فيكفر صاحبها باتفاق ، وقد تأتى فى العمل .. فيفسق أو يظلم ، لكنها مع الإصرار ترتفع إلى الكفر .

ـــ وتقسيط التطبيق تفرقة أو تجزئة زمنية فتأخذ الحكم الثانى ـــ والله أعلم .

ـــ والتشريع ليس فقط ما ورد فيما عده البعض مائتى آية إنه كذلك وارد خلال القصة ، وخلال المثل .

والتوجيه واجب التطبيق كالتشريع سواء بسواء فكله من الله .

والتفرقة بين هذه الأمور لا تجوز .

القاعدة الرابعة : القرآن معجزة الرسول ﷺ ثم للتشريع والتوجيه :

يخطىء من يحاول إجهاد القرآن لإثبات « نظريات علمية » .. فلم ينزل القرآن لهذا الغرض ، فضلاً عن أن النظريات العلمية تتغير وتتبدل ويثبت عكسها ـــ أحياناً ـــ مع البحث والزمن ، لكن يمكن إذا انتقلت النظريات إلى مرحلة « الحقائق العلمية » أن نتذوق من خلالها القرآن **﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يَتَبَيَّن لهم أنه الحق أو لم يَكْفِ بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾**[3] .

---

(١) البقرة : ٢٨٥ .

(٢) النساء : ١٥٠ ، ١٥١ .

(٣) فصلت : ٥٣ .

ـــ ولكن القرآن معجزة الرسول ﷺ تحدى العرب أن يأتوا بمثله ، أو بسورة من مثله ، أو بعشر آيات من مثله لكنهم عجزوا مع فصاحتهم وبلاغتهم .

بيد أن جانباً من الإعجاز لم يذكره الكثيرون ممن كتبوا فيه : هو إعجاز القرآن ككتاب تشريع وتوجيه .

فهو بالصفة الأولى يتميز :

١ ـــ بالشمول :

الذي لم يصل إليه دستور ولا قانون إذ يشمل حياة الفرد ، وحياة الأسرة ، وحياة الجماعة ، أو الدولة ، وهو يشمل التوجيه في الدنيا ، والتوجيه إلى الآخرة ، وهو يتأبى على الزمان والمكان ، يتأبى على الزمان ، فليس فيه تأقيت ، ولا يرد عليه بعد إذ اكتمل نسخ ، أو تعديل أو عدول .

ويتأبى على المكان .. فيرفض الحدود ، ويعيش مع المسلم أينما كان ، فليس له إذا خرج من دار الإسلام أن يتفلت من أحكامه .

٢ ـــ بالجمع بين التشريع والتوجيه في آن واحد :

والتشريع يتضمن الإلزام **﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾**[١] **﴿ كتب عليكم ﴾**[٢] **﴿ وقد فَرَضْتُم لهن فريضة فنصف ما فرضتم ﴾**[٣] .

والتوجيه يتضمن ترقية المشاعر للتطوع في نطاق بعد الالتزام .

﴿ ذلك لمن خشى العنت منكم وأن تصبروا خير لكم ﴾[٤] **﴿ وأن تصوموا خير لكم ﴾**[٥] **﴿ إلَّا أن يعْفُون أو يَعْفُوَا الذى بيده عُقدة النكاح وأن تعفوا أقربُ للتقوى ولا تَنْسَوا الفضل بينكم ﴾**[٦] .

---

(١) الشورى : ٤٠ .
(٢) البقرة : ١٧٨ ، ١٨٣ ، ٢١٦ .
(٣ ، ٦) البقرة : ٢٣٧ .
(٤) النساء : ٢٥ .
(٥) البقرة : ١٨٤ .

٣ ـــ التشريع ليس فقط ما جاء بصيغة الأمر أو النهى :

إنه كذلك يأتي خلال القصة ﴿ **ما كان حديثاً يُفْتَرى** ﴾[١] ...
ومن خلال المثل ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون** ﴾[٢] .
مبدأ الشرعية منصوص عليه في قصة يوسف ﴿ **إن الحكم إلّا لله** ﴾[٣] .

مبدأ شخصية العقوبة منصوص عليه في قصة يوسف ﴿ **مَعَاذَ الله أن نأخُذَ إلا من وَجَدْنا متاعنا عنده إنّا إذا لظالمون** ﴾[٤] وهى تساوى ﴿ **ألا تزر وازرةٌ وزرَ أخرى . وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى** ﴾[٥] .

أحكام أخلاقية ، وتوجيهات حول الصبر ، وعاقبته ، والعفو .
أحكام اجتماعية .. تهدف إلى تحريم الاختلاط وتبين نتائجه .

٤ ـــ النسخ في القرآن :

ـــ نسخ التلاوة والحكم ..

فأمره واضح ، إذ ارتفعت هذه الآيات من القرآن ، ولم تعد منه ، لحكمة بالغة ، الله أعلم بها .

ـــ وقد قيل إن سورة الأحزاب كانت في حجم سورة البقرة « حوالي ٢٠٠ آية » ثم صارت إلى ٧٣ آية ـــ وقيل إن الدعاء « اللهم إياك نعبد ، ولك نصلي ونسجد ... » كان من القرآن ونسخ تلاوة وحكماً .

ـــ نسخ الحكم دون التلاوة :

التوفيق فيه أولي من القول بالنسخ ـــ لم يقع نسخ في العقيدة ولا في الأصول لأن كليهما لم يحدث فيهما تبديل ولا تغيير .

---

(١) يوسف : ١١١ .
(٢) الحشر: ٢١ .
(٣) يوسف : ٤٠ .
(٤) يوسف : ٧٩ .
(٥) النجم : ٣٨ ، ٣٩ .

ـــ نسخ التلاوة دون الحكم :

فقد قيل فيه أن آية «والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله» قيل إنها كانت آية من القرآن ثم نسخت تلاوة وبقيت حكما.*

ـــ لا نسخ بعد اكتمال القرآن ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم ...** ﴾(١) .

وبعد وفاة الرسول ﷺ لانقطاع الوحى .

ثانيا : قواعد فى السنة

١ ـــ الوحى هو القرآن والسنة :

يخطىء البعض حين يستبعد السنة ، أو يجعلها في مرتبة دنيا ، ولئن ذهب بعض العلماء إلى جعلها في المرتبة الثانية ، فإنها عملاً تأتي في المرتبة الأولى مع القرآن عند التطبيق . ويكون الاتفاق في هذا القدر مع الرأى الآخر الذي جعلها في نفس المرتبة مع القرآن .

وأساس ذلك :

أ ـــ أن القرآن سماها وحياً : كما سمى القرآن وحياً ﴿ **وما ينطق عن الهوى . إن هو إلّا وحي يوحى** ﴾(٢) .

﴿ **وكذلك أوحينا إليك رُوحاً مِن أمرنا ما كنت تدري ما الكِتَاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم. صراط الله الذي له مافي السماوات وما في الأرض ألا إلى الله**

---

* ولنا وجهة نظر أن هذا الحكم ثابت بالسنة التي قد تصل إلى التواتر ، وأن الحديث الذى ثبتت به هذه الآية ، وإن كان صحيحاً ، إلّا أنه حديث آحاد .

ومن المتفق عليه أن القرآن هو ما ثبت بالتواتر ..

ومن ثم فالأولى أن نقول : إن هذا الحكم ثابت بالسنة المتواترة ، التي روت رجم الرسول ﷺ لماعز والغامدية ، فضلاً عن الأحاديث التي تواترت مَعْنىً حول حكم الرجم بالنسبة للزاني المحصن ـــ والله أعلم ـــ .

(١) المائدة : ٣ .

(٢) النجم : ٣ ، ٤ .

تصير الأمور ﴾[1] .

ب ــ أن القرآن أوجب طاعة الرسول استقلالاً : كما أوجب طاعة الله استقلالاً ، وطاعة الله باتباع قرآنه وطاعة الرسول ﷺ باتباع سنته . بل ونص على أن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله **﴿ ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾**[2] .

﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾[3] .

واعتبر اتباع الرسول ﷺ من علامات حب الله ، وجعل حب الله جزاءها **﴿ قل إن كنتم تُحِبُّون الله فاتبعوني يُحبِبْكُمُ الله ويغفر لكم ذُنُوبكم ﴾**[4] .

جـ ــ أن الرسول ﷺ اعتبر سنته « مثل القرآن » :

والمثلية تعنى « النِّدِّيَّة » .. أى نفس المستوى ــ والله أعلم ــ « ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه »[5] .

واعتبرهما ــ الكتاب والسنة ــ مصدر الهدى ، وما دونهما الضلال « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً : كتاب الله وسنتى »[6] .

د ــ أنه لا سبيل لنفاذ كثير من أحكام القرآن إلّا باتباع السنة .

فأحكام الصلاة لم ترد تفصيلاً في القرآن ، وهى عمود الدين ، بل وردت في السنة ، ودل على ذلك قول رسول الله ﷺ « صلوا كما رأيتمونى أصلي »[7] ومقادير الزكاة ، وبعض تفاصيلها ، ومناسك الحج « خذوا عنى مناسككم »[8] .

---

(١) الشورى : ٥٢ ، ٥٣ .

(٢) النساء : ٥٩ .

(٣) النساء : ٨٠ .

(٤) آل عمران : ٣١ .

(٥) الحديث أخرجه أبو داود في السنة ٥ / ١٠ « ٤٦٠٤ » ورواه غيره .

(٦) الحديث أخرجه مالك في الموطأ ص ٥٦٠ (٣) .

(٧) الحديث أخرجه البخاري في الأذان ١ / ١٦٢ وفي الأدب ٨ / ١١ .

(٨) الحديث أخرجه النسائي في الحج ٥ / ٢٧٠ ، وأخرجه مسلم في الحج ٢ / ٩٤٣ ، وأبو داود في الحج ٢ / ٤٩٦ . من حديث جابر بن عبد الله .

ـــ وأحكام أخرى جاءت السنة مخصصة لها ومقيدة فعدل عن العموم الوارد في الكتاب إلى الخصوص الوارد في السنة « لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها »[1] خصصت قوله تعالى ﴿ وأحل لكم ما وراء ذلكم ﴾[2] كما عدل عن الإطلاق الوارد في القرآن ، إلى التقييد الوارد في السنة ، فآيات المواريث قيدها قول رسول الله ﷺ « لا يرث المسلم الكافر »[3] ، « ولا وصية لوارث »[4] .

ـــ وأحكام أخرى جاءت في السنة لم ترد في الكتاب ، والإجماع على العمل بها ، مثل « رجم المحصن » فقد ورد به عمل رسول الله ﷺ في الغامدية وماعز .

ومثل « تحريم أكل الحمر الأهلية ، وكل ذى ناب من السباع ، وذى مخلب من الطير » فهى معمول بها ؛ لما سبق ؛ ولأمر الله ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾[5] .

٢ ـــ ومع ذلك فليس في السنة أمر إلّا وأصله في القرآن :

أ ـــ إما لأنها بيان ...

أى مفسرة وشارحة .. وهذا شأن كثير من أحكام السنة أو مخصصة أو مقيدة .. وقد تقدم المثال على ذلك . أو مؤكدة لما جاء في القرآن شأن ما جاء في أحكام الإيمان وأركان الإسلام .

ب ـــ وإما لأن ما جاء زائداً :

يتردد بين طرفين نص عليهما القرآن أو يمكن قياسه على ما جاء بالقرآن ومثل الأول حل ميتة البحر ، وتحريم لحم القنفذ « هو الطهور ماؤه الحل ميتته »[6] وذلك بين الطرفين ﴿ يحل لكم الطيبات ﴾ ﴿ ويحرم عليكم

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في النكاح ٧ / ١٥ . ومسلم في النكاح ٢ / ١٠٢٩ (١٤٠٨) ورواه غيرهما .
(٢) النساء : ٢٤ .
(٣) الحديث أخرجه البخاري في الفرائض ٨ / ١٩٤ . ومسلم في الفرائض ٣ / ١٢٣٣ (١٦١٤) وغيرهما .
(٤) الحديث أخرجه أبو داود في الوصايا ٣ / ٢٩١ (٢٨٧٠) ورواه غيره .
(٥) راجع المشروعية الإسلامية العليا ـــ باب المصادر ـــ السنة . والآية من سورة الحشر (٧) .
(٦) الحديث أخرجه أبو داود في الطهارة ١ / ٦٤ ، ٨٣ ، وغيره .

الخبائث ﴾ فقد أحل الأول ؛ لأنه من الطيبات ، وحرم الثاني وقال الرسول في تحريمه عليه الصلاة والسلام إنه خبيث ــ أما القياس فكقياس تحريم العمة والخالة على تحريم أخت الزوجة .

جـ ــ ولأن ما جاء في السنة يأمر به القرآن :

وقد فهم الصحابة ذلك ، فقد لعن عبد الله بن مسعود الواشمات والمستوشمات ، فسألته امرأة عن ذلك ، فقال ومالى لا ألعن من لعن الله وهو في كتابه ، فقالت المرأة لقد قرأت ما بين لوحى المصحف فما وجدته ، قال لئن كنت قرأته فقد وجدته . قال ــ عز وجل ــ **﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾**[1] .

د ــ ولأن مقاصد السنة مردها إلى مقاصد الكتاب :

فقد ثبت بالاستقراء أن مقاصد الكتاب هي :

الضرورات .

والحاجيات .

والتحسينات .

وأن مدارها على خمس : الدين ــ النفس ــ المال ــ العرض ــ العقل ، وثبت أن مقاصد السنة هى هى نفسها .

٣ ــ العمل بخبر الآحاد واجب على العموم :

ــ الإجماع على العمل بخبر الآحاد في مجال الأحكام العملية للأدلة القائمة على العمل بالسنة ؛ لأن الذي جاء من السنة متواترا قليل بل نادر[2] .

فتكون النتيجة تعطيل السنة « نصف الوحى » ــ وهو غير وارد ــ

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير « تفسير سورة الحشر » ٦ / ١٨٤ . وفي اللباس ٧ / ٢١٢ . وأخرجه مسلم في اللباس والزينة ٣ / ١٦٧٨ « ٢١٢٥ » ورواه غيرهما .

(٢) قال البعض أنه لا يجاوز عشرين حديثاً .

ـــ وحتى في مجال العقيدة فقد قام جم غفير[١] بالعمل بأحاديث الآحاد ، ونرى العمل بها ما دام سندها صحيحاً .. فهى أولى من القياس أو غيره من الاجتهاد .

ـــ إخراج بعض مجالات الأحكام العملية « كالأحكام الدستورية » تخصيص بغير مخصص لا يجوز ، فإن هذه الأحكام داخلة في مجال الأحكام العملية فيشملها الاتفاق السابق وما قيل لإخراج أحاديث الآحاد من نطاق هذا التطبيق مردود[٢] .

ـــ أما رفضها جملة ممن زعم الإسلام[٣] فأمر لا يستحق الرد ، وقد أفتى جمهرة من العلماء بكفر من قال بذلك[٤] .

٤ ـــ فعل الرسول ﷺ وإقراره :

ـــ هو جزء من السنة ، ويلزم حتى يصح الاتباع .

ـــ والفعل يدل على مطلق الإذن ، وهو أبلغ في التأسي من القول ، وقد يدور بين الوجوب ، والندب ، والإباحة ، والترك يدل على مطلق النهى .

وقد يتردد بين التحريم والكراهة ، أو الترك للمباح بحكم الجبلّة[٥] ، أو خوف الافتراض[٦] أو الترك لما هو أولى وأزكى[٧] .

والإقرار يدل على مطلق رفع الحرج :

وما لا حرج فيه جنس لأنواع : الواجب ، المندوب ، المباح .

---

(١) الأئمة الأربعة ، وإن وضع بعضهم بعض شروط في المتن أو السند لكن ذلك لا يخرجها عن نطاق الآحاد ، وقال بالعمل بها في مجال العقيدة أحمد بن حنبل ، وابن حزم وكثير من المحدثين ـــ المشروعية الإسلامية للمؤلف .

(٢) توليا الرد عليه في المرجع السابق .

(٣) بعض حكام المسلمين .

(٤) الشيخ حسنين محمد مخلوف والشيخ عبد العزيز بن باز وغيرهم .

(٥) ترك أكل لحم الضب .. وهو مباح « لأنه تعافه نفسه » .

(٦) ترك القيام في المسجد في رمضان .

(٧) ترك عدم القسم إلى القسم رغم إباحة رب العالمين له ذلك ﴿ ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ﴾ حمله البعض على القسم ، وحمله آخرون على الطلاق والإمساك والله أعلم .

أما المكروه فلا يدخل ، لأن سكوته يؤذن إطلاقه بمساواة الفعل الترك . والمكروه لا يصح فيه ذلك .

والقول إذا قارنه فذلك أبلغ ما يكون في التأسي .

فالاقتداء به في أعلى مراتب الصحة .

كذلك الإقرار منه إذا وافق الفعل .

وقضاؤه ﷺ إماماً وقاضياً ليس بملزم فيما يتعلق، « بالوقائع » ، أو « تكييف الوقائع » ، أما ما يتعلق بالحكم المختار، فهو سنة ملزمة كالقول سواء بسواء فكون الوقائع صحيحة أو غير صحيحة .. عمل بشرى من الرسول ﷺ وتكييف الوقائع بأنها كذا أو كذا .. اجتهاد بشرى كذلك من الرسول ﷺ .

أما إنزال « الحكم الشرعي » على الوقائع فهو وحى .. لا يصدر فيه الرسول ﷺ عن بشريته ، وإنما عن بلاغ من رب العالمين .

وحتى على فرض الاجتهاد فيه .. فسكوت الوحى عليه إقرار من الله سبحانه والإقرار له نفس حكم القول . والله أعلم .

ـــ وقد غلط قوم في هذا المجال فلزم التنويه(١) .

٥ ـــ التواتر المعنوى للحديث يفيد القطع :

أشرنا إلى أن المتواتر في الحديث قليل ، وهو بلا شك يفيد القطع . أما غير المتواتر فهو كثير ..

وهو وإن كان يفيد الظن أو بتعبير أدق غلبة الظن ، وإن كانت غلبة الظن كافية للعمل أو لوجوب العمل ـــ فإن كثرة من هذا النوع ورد متواتراً تواتراً معنوياً بمعنى أن تجتمع على معنى الحديث الواحد « الآحاد » مجموعة أحاديث في نفس المعنى .

فهل تكون « قوة » هذا الحديث في نفس قوة حديث الواحد أو حديث الآحاد ؟ في هذا المعنى يقول إمام جليل :

---

(١) الدكتور عبد الحميد متولى ـــ نظام الحكم في الإسلام ـــ راجع رسالتنا المشروعية الإسلامية العليا ـــ باب المصادر ـــ فصل السنة .

« إن للاجتماع ما ليس للتفرق »[1] وهي قاعدة صحيحة عقلاً وواقعاً ، وقد أورد عليها في التطبيق أن « التواتر المعنوى » يرفع المعنى إلى مستوى القطع بدلاً من الظن وهو ما نراه صحيحاً في هذا الباب . والله أعلم .

ثالثا : المصادر الأخرى

جمعنا هذه المصادر باعتبارها إما تابعة للوحى أو ملحقة به والمصادر التابعة في ظننا ـــ والله أعلم ـــ أربعة : الإجماع ، القياس ، المصلحة ، الاستحسان ، والمصادر الملحقة في ظننا هي : قول الصحابي ، وشرع من قبلنا .... أما بقية المصادر فهي ـــ في ظننا ـــ مجرد قواعد فقهية لا ترتفع إلى مرتبة المصادر ومن ثم التفتنا عنها « مثل العرف والاستصحاب » .

ونجمع بإذن الله القواعد الخاصة بالمصادر التابعة في ثلاث قواعد والقواعد الخاصة بالمصادر الملحقة في قاعدة ، والقواعد الفقهية في قاعدة .

القاعدة الأولى : الإجماع ليس دليلا بذاته لكنه يرفع مرتبة الدليل أو يكفى عنها .

ونقصد بذلك أن الإجماع[2] ليس دليلاً على الحكم أو مصدراً له وحده ؛ لأنه في حقيقته اجتهاد من مجموع مجتهدين ، وإذ كان لا يصح القول في دين الله بغير دليل[3] ، فإنه لا بد من دليل يستند إليه مجموع المجتهدين . هذا الدليل قد يكون ظنياً .. كحديث آحاد ، أو آية أو حديث متواتر ، جاء المعنى فيهما ظنياً لا قطعياً ، ويكون عمل الإجماع في هذه الحالة رفع هذا الدليل إلى درجة القطع واليقين ؛ لأن اتفاق المجتهدين على معنى واحد يقطع بعدم وجود معنى آخر « والله أعلم » .

---

(١) الإمام الشاطبي ـــ الموافقات

(٢) وتعريفة : اتفاق المجتهدين ، من أمة محمد ﷺ ، في عصر من العصور على حكم شرعى عملى .

(٣) يقول الآمدى : « فإن القول في الدين من غير دلالة ولا أمارة خطأ » الإحكام في أصل الأحكام جـ ١ ص ٣٧٦ » وهو مفهوم قوله تعالى ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ وقوله : ﴿ هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين ﴾ أى دليل مبين ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ﴾ الكهف : ١٥ .

أما إن كان الدليل قطعياً .. كالدليل على وجوب الصلاة أو غيرها من أركان الإسلام فإن الإجماع هنا يرفع الحكم إلى درجة « المعلوم من الدين بالضرورة » بحيث يكفر الخارج عليه أو جاحده .. والله أعلم .

والإجماع المقصود بهذه الصورة هو الإجماع الصريح .

واختلف حول الإجماع السكوتى[1] — في ظننا — أنه يصح كدليل أو مصدر ظنى الدلالة .

وقد وقع الإجماع على عهد الصحابة[2] ويمكن أن يقع من جديد .

إذا تميز مجتمع الإسلام وانحاز إلى الحكم بكتاب الله .

القاعدة الثانية : القياس فعل المجتهد فهو وسيلة لاستنباط الحكم من النص :

ويبقى النص هو الدليل .

إذ يكون النص فيه الحكم الأصلى ، والاستنباط هو الحكم الفرعي ويجمع بينهما « علة » مشتركة ومجاله الأصلى الأحكام العملية ولا عمل للقياس في مجال العقائد أو الشعائر ويضيف البعض الحدود والكفارات .

ويخطىء بعض المحدثين ، فيخرج « الأحكام الدستورية » ، وليس بصحيح[3] .

القاعدة الثالثة : المصلحة مبنية على استقراء نصوص الشريعة التى تكشف عن أن مقاصدها :

الدين — النفس — العقل — النسل — المال .

---

(١) الإجماع السكوتى هو الذي يتفق بعض العلماء على حكمه ويسكت الباقون .

(٢) وقع على عهد أبى بكر :

(أ) على ضرورة الخلافة .

(ب) إجماع على أحقية أبي بكر بالخلافة .

(جـ) إجماع على جمع المصحف .

(د) إجماع على مصحف واحد — وفي عهد عمر إجماع على عدم توزيع أرض السواد .

(٣) د . عبد الحميد متولي . راجع مؤلفنا المشروعية الإسلامية العليا .

ـــ وعن أن مراتبها : الضرورات ـــ الحاجيات ـــ الكماليات .

ـــ وهى قائمة كمصدر تبعى عند أكثر المذاهب ، تحت أسماء مختلفة(١) .

ـ وشروطها :

١ ـــ كونها من جنس مصلحة أو مصالح أخرى تشهد لها جملة نصوص أو جملة مقاصد(٢) .

٢ ـــ كونها مصلحة حقيقية .

٣ ـــ كونها مصلحة عامة .

ـــ وهى بعيدة عن إفراط الذين قدموها على النصوص ، وعن تفريط الذين اعتبروها حكم الهوى إذا اعتبرنا الشروط السابقة ، وحقيقتها أنها كالقياس ، فعل المجتهد ، وهى قياس مصالح ومعان ، كقياس الألفاظ والمباني ـــ والله أعلم(٣) .

القاعدة الرابعة : قول الصحابى ، وشرع من قبلنا :

كلاهما ملحقان بالوحى . باعتبار الأول في أكثر أحواله مرفوعاً إلى النبى ، ﷺ أو متأثراً به(٤) .

أما الثاني فيستمد حجيته من وروده في شرعنا مع عدم وجود إلغاء له في شرعنا .

---

(١) تناولها البعض تحت القياس « الشافعي رحمه الله » ، والبعض تحت باب الاستحسان « أبو حنيفة » أما المالكية والحنابلة فينسب إليهما الأخذ بها وإذا كانت العبرة بالحقيقة والواقع فإن المذاهب جميعاً تعتبر آخذة بها .

(٢) عبر عنها الشافعي : المصلحة الشبيهة بالمعتبرة ، والغزالي بالملائمة ، وغيرهما بالمرسلة أى لم يلغها الشارع ولم يعتبرها والأولى أدق والله أعلم .

(٣) تفصيلاً ـــ المرجع السابق « المشروعية الإسلامية العليا ، وتحت الطبع « نظرات في علم الأصول » .

(٤) مسلم أصولاً :

١ ـــ بما اتفقوا عليه .

٢ ـــ ما لم يعرف له مخالف .

٣ ـــ ما لا يدرك بالقياس .

أما ما اختلفوا فيه فهو حجية قول الصحابي على غير الصحابي في غير الأحوال السابقة والأول والثاني يأخذ حجيته من الإجماع « الصريح ـــ أو السكوتي » والثالث يكون في الأكثر مرفوعاً للرسول ﷺ .

القاعدة الخامسة : العرف ، والاستصحاب قاعدتان فقهيتان :

فالأول : قد تبنى عليه الأحكام الشرعية أو يأذن الله فى بناء الأحكام عليه ، ففى الحالة الأولى مصدر الحكم هو التشريع ، وفى الثانية مصدر الحكم الحقيقى « هو الإذن » لا العرف .

والثانى : عمله عمل وسائل الإثبات ، فهو يعنى بقاء الحكم نفيا أو إثباتا على ما هو عليه حتى يوجد ما يغيره[1] .

المبحث الثالث
قواعد متعلقة بمقاصد الأحكام

أولا : مقاصد الأحكام

القاعدة الأولى : الأعمال بالنيات ، والنية الخالصة تجعل العادى عباديا ولا يخلو حكم شرعى من حق الله :

وبيان ذلك :

ــ أن الأعمال بالنيات تواترت عليها نصوص من الكتاب والسنة بما لا نجد ضرورة لترددها ﴿ **وما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصِين له الدين حُنَفَاء ..** ﴾[2] ، ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فَلْيَعْمَلْ عملاً صالحاً ولا يُشْرِك بعبادةِ ربِّه أحدا** ﴾[3] « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ... »[4] .

ــ والأصل في « العبادات » قصد التعبد .. دل على ذلك الاستقراء ، وصرحت به بعض النصوص ، فليس بلازم فهم « حكمة النص » ، ولا بد ــ في العموم ــ من توافر القصد .

---

(١) راجع تفصيلاً ــ الرسالة السابقة : المشروعية الإسلامية العليا .

(٢) البينة : ٥ .

(٣) الكهف : ١١٠ .

(٤) متفق عليه .

والأصل في العادات التعليل والقياس ــ دل على ذلك الاستقراء ، وصرحت به بعض النصوص ، وبلغ بعض أهل الفترات شيئاً من حسن التعامل ، ومن ثم فالأصل عدم لزوم النية في العادى ، لكنها إن توافرت قلبته إلى عبادى ــ والله أعلم .

ــ ولا يخلو حكم شرعى من حق الله .. وإن قسمها العلماء اثنتين : حق الله ، وحق العبد ، لكن الصحيح أنها ثلاثة .

حق الله .. خالصاً .
حق لله غالب وفيه حق للعبد .
حق للعبد غالب وفيه حق لله .
ومن ثم فلا يخلو واحد منها من حق الله .
وحق الله لا يملك العبد التنازل عنه أو إسقاطه .
وحقه إن ملك التنازل عنه أو إسقاطه فيبقى مع ذلك حق الله[1] . والله أعلم .

القاعدة الثانية : قصد التشريع إخراج المكلف عن داعية الهوى ، والمقاصد الأصلية لا يراعى فيها حَظُّ المكلف ، وما خالف حظ النفس تأكد عليه الطلب :

ــ أما إنّ قصد التشريع إخراج المكلف عن داعية الهوى فحتى يكون عبداً لله اختياراً كما كان له عبداً اضطراراً وقد دل على ذلك نصوص العبودية ، وذم مخالف هذا القصد ، وما علم من التجارب من أن المصالح الدينية والدنيوية لا تكون مع استرسال الهوى .

ويترتب على ذلك :

بطلان العمل المبني على الهوى .
اتباع الهوى في المحمود طريق إلى المذموم .
اتباع الهوى في الأحكام الشرعية مظنة أن يحتال بها كالمرائي يتخذ الأعمال

---

(١) الإمام الشاطبي ــ الموافقات .

الصالحة سلماً لما في أيدي الناس .

ــ والمقاصد الأصلية لا يراعى فيها حَظُّ المكلف ، وهي إما أن تكون عينية « حفاظ العبد على دينه ، ونفسه ، ونسله ، وعقله ، وماله » أو كفائية لأداء مصالح عامة للمجتمع(١) . وكلاهما ينتفى فيها الحَظّ ، فلا يتقاضى على صلاته أجراً ، كما لا يتقاضى على قضائه بين الناس منهم أجرا ...

أما المقاصد التابعة فهى التى روعى فيها حَظّ المكلف لتقوم الحياة ، والاستمتاع بالحظوظ فيها من غير سرف من قبيل ﴿ **وأما بنعمة ربك فحدث** ﴾(٢) والله أعلم .

ــ وما خالف حَظَّ النفس تأكد عليه الطلب من الشارع ، أما ما وافق حَظَّ النفس فلا يتأكد عليه الطلب إذ تكفي فيه الجبلة والفطرة الدافعة إلى تحصيله من غير طلب .. مثل الطعام وطلب الزوجة ... وما جرى مجرى ذلك .

القاعدة الثالثة : لا تكليف إلا بمقدور ، والحرج مرفوع ، والتكاليف جارية على الحد الأوسط :

ــ لا تكليف إلّا بما يقدر عليه الإنسان ، فالقدرة شرط للتكليف فلا تكليف بالأوصاف الجِبِلِّيَّة ؛ لأنه لا يقدر عليها الإنسان ، ولا تكليف بما لا يطاق ، ولا بالمشقة الخارجة عن العادة .

لكنه يصح مع المشقة الزائدة ، والمشقة العادية « والأجر على قدر المشقة » ، لكن القصد يبقى للعمل لا للمشقة .

والحرج مرفوع :

ــ لأمر الله ورسوله : ﴿ **وما جعل عليكم فى الدين من حرج** ﴾(٣) .

---

(١) إذا تعارضت مصلحة العبد مع مصلحة غيره كان الأفضل الإيثار .
إذا تعارضت مصلحة العبد مع مصلحة عامة .. قدمت العامة .
إذا تعارضت مصلحة العبد مع مصلحة عامة بلغت بالعبد حد التلف : خلاف ، والإيثار أولى .
وإذا قام العبد بمصلحة عامة وجب على المسلمين القيام بمصالحه .

(٢) الضحى : ١١ .

(٣) الحج : ٧٨ .

﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله لو يُطِيعُكُمْ في كثير من الأمر لَعَنِتُّم ﴾(١)

« عليكم من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا »(٢) .

ــ ما يؤدى إليه الحرج من انقطاع من الطريق ، أو بغض للعبادة ، أو كراهية للتكليف . « إن هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق ، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله ، فإن المُنْبَتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى »(٣) .

ــ ما يؤدى إليه الإغراق في جانب إلى التقصير في جوانب أخرى .

« إن لجسدك عليك حقا ، وإن لعينك عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا ، وإن لزورك عليك حقا »(٤) .

ــ والتكاليف جارية على الحد الأوسط .

فإن لُوحِظَتْ في طَرَفٍ فَلِلرَّد إلى الحد الأوسط ، وذلك في مقابلة واقع أو متوقع في الطرف الآخر .

فالتخويف والترهيب والزجر ــ يؤتى به في مقابلة من غلب عليه الانحلال في الدين .

والتخفيف « في الترجية والترغيب والترخيص » يؤتي في مقابلة من غلب عليه الحرج فى التشديد .

فإذا لم يكن هذا ولا ذاك رأيت التوسط لائحاً ، ومسلك الاعتدال واضحاً

القاعدة الرابعة : المقاصد ضرورية أو حاجية أو تحسينية ، وهيَ مقاصد كلية ، أبدية عامة ، معصومة من الضياع والتبديد :

ــ مراتب المقاصد بالاستقراء :

(١) الحجرات : ٧ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم في الصحيح ١ / ٥٤٠ (٧٨٢) . ٢ / ٨١١ وأخرجه البخاري في الصحيح ١ / ١٧ ، ٢ / ٦٨ ، ٣ / ٥٠ .

(٣) رواه البزار عن جابر رضى الله عنه . انظر « كشف الخفاء ومزيل الإلباس » للعجلونى ١ / ٣٠٠ « ٧٩٥ » ورواه الإمام أحمد في المسند ٣ / ١٩٩ عن أنس رضى الله عنه مختصرا .

(٤) الحديث أخرجه البخارى فى الصيام ٣ / ٥١ .. ومسلم فى الصيام ٢ / ٨١٣ . وغيرهما .

ضرورية : وهى خمسة : الحفاظ على الدين ، والنفس ، والنسل ، والمال والعقل .

وحاجية : مفتقر لها من حيث التوسعة ورفع الضيق .

وتحسينية : الأخذ بما يليق من محاسن العادات ! ولكل واحدة منها مكملات . وكل واحدة تخدم التى تعلوها ! والتي تعلوها أصل لها ! .

ــ وهى مقاصد كلية ــ لا يقدح فيها تخلف الحكم أو الحكمة في بعض الجزئيات وهى أبدية ــ لأن الشريعة تتأبى على التأقيت ﴿ .. وخاتم النبيين ﴾[1] .

وهى عامة ــ لأن الشريعة تتأبى على التخصيص ﴿ إلَّا رحمة للعالمين ﴾[2] وما خص به رسول الله ﷺ قام عليه النص ﴿ إلَّا كافة ﴾[3] .

ــ وهذه الشريعة معصومة ، لأن نبيها معصوم ، وأمتها معصومة وقد صرحت النصوص بالعصمة .

﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[4] ، فجعل الحفظ له سبحانه بينما في الكتب السابقة ﴿ بما استحفظوا من كتاب الله ﴾[5] فوكل الحفظ إليهم فخانوا الأمانة ، أما الكتاب الأخير فقد تكفل بحفظه على ما سبق بيانه . والأمة معصومة لقول رسول الله ﷺ : « إن الله لا يجمع أمتى على ضلالة »[6] .

ثانيا : الأحكام

القاعدة الأولى : دائرة الأحكام ليست قاصرة على الأحكام العملية ، وإلا لضاقت الشريعة وهى مرادف الدين :

فالدين ، والملة ، والشريعة بمعنى واحد ﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر**

(١) الأحزاب : ٤٠ .
(٢) الأنبياء : ١٠٧ .
(٣) سبأ : ٢٨ .
(٤) الحجر : ٩ .
(٥) المائدة : ٤٤ .
(٦) الحديث أخرجه الترمذي في الفتن ٩ / ١١ [شرح ابن العربي المالكى] .

فاتبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أهواء الذين لا يعلمون ﴾(١) .

ــ وفضلاً عن أن هذا الاتجاه قد يسول للحاكمين قصر التطبيق على ما جاء في آيات الأحكام وأحاديثها « ويقدرها البعض ٢٠٠ مائتى آية » وتبقى بقية الشريعة معطلة ، فضلاً عن ورود الأحكام بغير صيغ التكليف « راجع القرآن » .

ــ والأحكام العقدية والخلقية ــ وهى سابقة على أحكام المعاملات في الوجود وفي الأهمية ، واجبة التطبيق تماماً كأحكام المعاملات بل إنها ينبغى أن تسبق الأخيرة في التطبيق ، في مجالات التربية والتعليم والتوجيه والإعلام ... لأن النظام الإسلامي يقوم على التوجيه أكثر من قيامه على القسر والإلزام ، ويتولد الحارس داخل النفوس أكثر من وجوده في شكل أجهزة ومخابرات ! .

القاعدة الثانية : الأحكام الشرعية ــ بالمفهوم الاصطلاحى ــ :

إما تكليفية : أى طلب فعل على سبيل الحتم أوعلى غير سبيل الحتم .
أو طلب كف على سبيل الحتم أو على غير سبيل الحتم .
أو طلب تخيير .

وإما وضعية : وهو ما اقتضى وضع سبب لشيء أو شرطٍ له أو مانعٍ منه وتحت الأولى يقع بحوث :

الواجب ــ المندوب ــ المحرم ــ المكروه ــ المباح .

وتحت الثانية بحوث :
السبب : ما جعله الشارع علامة على مسببه كدخول الوقت للصلاة .
الشرط : ما يتوقف وجود الحكم على وجوده ولا يلزم من عدمه عدم وجوده مثل قراءة الفاتحة للصلاة وبالنسبة للجمعة وجود الإمام .

المانع : ما يلزم من وجوده عدم الحكم « بالنسبة للزواج الرضاع ــ الأخت » لكن لا يلزم من عدمه وجود الحكم .

الرخصة والعزيمة « الأولى ما شرعه تخفيفاً على المكلف ، والعزيمة ما شرعه

---

(١) الجاثية : ١٨ .

الله أصالة من الأحكام .

الصحة والبطلان ــ وهو وصف يلحق الأحكام .
ومحل بحث هذه الأمور في كتب الأصول[1] .

القاعدة الثالثة : دائرة الأحكام التكليفية هى دائرة الحلال والحرام :

الذى ردده القرآن .. وأثار في نفوس أتباعه التزامه واحترامه ..
ودائرة الحلال تشمل : الواجب ، والمندوب والمباح .
ودائرة الحرام تشمل : المكروه والمحرم .

ــ وهى من ناحية أخرى تشمل فروع القانون العام والقانون الخاص باللغة الحديثة ، والأول ما كانت الدولة طرفاً فيه ، والثانى ما كان خاصاً بعلاقات الأفراد ..

ومثال الأول : القانون الدستورى ، والقانون الدولى ، والقانون الجنائي ، والقانون المالى .. إلخ .

ومثال الثاني : القانون المدني ، القانون التجاري ، قانون المرافعات ؛ قانون الإثبات ... إلخ .

ــ وليس بالقانون وحده يصح النظام .. ومن ثم وجب الالتفات إلى جانب التوجيه ، مع جانب التشريع ، كما وجب الالتفات إلى الأساس الخلقى ، والأساس العقدي كذلك ، والتوجيه يرتبط بالأساسين .

القاعدة الرابعة :

الواجب : تقع المفسدة عظيمة بمداومة تركه « من ترك الجمعة ثلاث مرات طبع الله على قلبه » وقال سحنون « من تركها ثلاثاً لم تجز شهادته » .

والمندوب : خادم للواجب : إما مقدمة أو تكميلاً أو تذكاراً وهو من جنسه كنوافل الصلوات ونوافل الصيام أو من غير جنسه كطهارة الخبث وأخذ

(١) نظرات في علم الأصول ــ للمؤلف ــ تحت الطبع .

الزينة ، وتعجيل الإفطار .

والحرام : المداومة عليه مفسدته أكبر .

ولذا كان حد الشارب الجلد ، وحد المداوم القتل .

المكروه : يقع من الحرام موقع المندوب من الواجب .

القاعدة الخامسة : مرتبة العفو :

يجعل لها بعض العلماء أو كثير منهم قسماً سادساً عن أقسام الحكم التكليفي الخمسة .

ـــ ويستدلون عليها بسول الله :

﴿ **عفا الله عنها ..** ﴾(1) ﴿ **عفا الله عنك لم أَذِنْتَ لهم** ﴾(2) « وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان »(3) .

وكان يسأل عن الشيء لم يحرم فيقول : « عفو » وكان يقول « ذرونى ما تركتكم ، فإنما هلكَ من قبلكم بكثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم »(4) ، « أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم عليهم فحرم من أجل مسألته »(5) .

ـــ ويضربون له الأمثال :

ما سكت عنه .

الخطأ والنسيان .

الخطأ في الاجتهاد .

الرخص .

مخالفة دليل نسخ أو لم يبلغه .

---

(1) المائدة : 101 .

(2) التوبة : 43 .

(3) مسلم ج ٤ ص ١٨٣٠ كتاب الفضائل باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله .

(4) الحديث أخرجه البخاري فى الاعتصام ٩ / ١١٧ ومسلم في الحج ٢ / ٩٧٥ (١٣٣٧) .

(5) أبو داود جـ ٤ ص ٢٠١ كتاب السنة باب لزوم السنة .

- وللمباح عندهم إطلاقان :

مخير فيه : فيكون مباحاً بالجزء مطلوباً بالكل ﴿ **فإذا قُضِيَت الصلاة فانْتَشِرُوا** ﴾(1) ﴿ **نساؤكم حَرْثٌ لكم** ﴾(2) .

لا حرج فيه : فيكون مباحاً بالجزء مطلوباً الترك بالكل ﴿ **وإذا رَأَوْا تجارة أو لهواً انفضوا إليها** ﴾(3) .

ويعرفونه بأنه :

« ليس مطلوب الفعل ، ولا مطلوب الاجتناب فهو متساوى الطرفين فإذا كان ذريعة لأمر آخر أخذ حكمه ، كأن يكون ذريعة إلى ممنوع فيكون ممنوعاً ، أو أن يكون ذريعة إلى واجب فيكون واجباً » .

لا يكون ذريعة : فهو المباح المطلق .

ويميل إلى الاجتناب : إذا اتسم بالإسراف .

إذا منع من عبادة أو حال دون خير « إنى لأدع سترة من الحلال ولا أحرمها »(4) .

وفي الحديث : « لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً لما به بأس »(5) .

---

(1) الجمعة : ١٠ .

(2) البقرة : ٢٢٣ .

(3) الجمعة : ١١ .

(4) وبهذا المعنى قال ابن عمر رضى الله عنهما : إني لأحب أن أدع بيني وبين الحرام سترة من الحلال لا أخرقها . جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ص ٦٤ .

(5) الحديث أخرجه الترمذي في سننه ٩ ٢٧٨ [شرح ابن العربي المالكي] وابن ماجه في الزهد ٢ / ١٤٠٩ (٤٢١٥) .

المبحث الرابع
القواعد المتعلقة بالدلالات

القاعدة الأولى : حول دلالة الأمر :

للأمر ـــ كأصل ـــ صيغ :

فعل الأمر ﴿ أقم الصلاة ﴾(١) .

المضارع المجزوم بلام الأمر ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الذين يُخَالِفُونَ عن أمره** ﴾(٢) .

اسم فعل الأمر ﴿ **عليكم أنفسكم** ﴾(٣) ـــ حذار ـــ حي على الفلاح .

المصدر النائب عن فعله ﴿ **فَضَرْبَ الرِّقَاب** ﴾(٤) .

جملة فعلية « خبر في معنى الأمر » ﴿ **والوالدات يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ** ﴾(٥) .

ـــ والأمر ـــ كأصل ـــ للوجوب .

إلا أن تصرفه قرينة أو دليل عن الوجوب إلى الندب والإباحة .

والقول بأنه كأصل للإباحة مردود بأن الأمر طلب واستدعاء والإباحة إذن وإطلاق .

والقول بأنه كأصل للندب مردود لأنه يدخل في الندب جواز الترك وهو لا يدخل في الوجوب .

والأدلة على أن الأمر للوجوب كثيرة :

من القرآن ﴿ **فليحذر الذين يخالفون عن أمره ...** ﴾(٦) ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ..** ﴾(٧) ﴿ **وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون** ﴾(٨) .

من السنة : قال لعائشة « وما لى لا أغضب وأنا آمر بالأمر فلا أُتبَعُ .. » (٩) .

---

(١) هود : ١١٤ .
(٢) النور : ٦٣ .
(٣) المائدة : ١٠٥ .
(٤) محمد : ٤ .
(٥) البقرة : ٢٣٣ .
(٦) النور : ٦٣ .
(٧) الأحزاب : ٣٦ .
(٨) المرسلات : ٤٨ .
(٩) الحديث أخرجه ابن ماجة في المناسك ٢ / ٩٩٣ (٢٩٨٢) . والإمام أحمد في المسند ٤ / ٢٨٦ .

وذلك بعد أمره بفسخ الحج إلى عمرة ورد الصحابة. قول بريرة له ... « أتأمرني يا رسول الله ، قال « إنما أنا شافع »[1] « في مراجعة زوجها » .

قوله عليه الصلاة والسلام « لولا أن أشق على أمتي .. »[2] .

من إجماع الصحابة أوجبوا الجزية على المجوس لقوله عليه الصلاة والسلام « سنُّوا بهم سُنَّةَ أهل الكتاب »[3] .

أوجبوا غسل الإناء المولوغ لقوله « اغسلوه سبعاً »[4] .

من أهل اللغة : عقلوا أن الأمر للوجوب فأوجبوا عقاب العبد أن خالف أمر سيده .

ـــ والأمر بعد الحظر يفيد الإباحة ، على قول ، ويرتفع إلى الوجوب على الراجح ، وقيل يكون للندب والأول للشافعى ، والثاني لأكثر الفقهاء ـــ المتكلمين .

ونرى ألا يرتفع للوجوب إلَّا بقرينة ، ويبقى متردداً بين الإباحة والندب ؛ لأن الحظر السابق عليه قرينة مخفضة من وجوبه ، ولأنه لا يقاس الأمر على النهى « ما نهيتكم عنه فانتهوا ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم »[5] .

القاعدة الثانية : حول دلالة النهى :

ـــ صيغ النهى :

المضارع المسبوق بلا الناهية ﴿ **ولا تقربوا الزنى** ﴾[6] .

الخبر في معنى النهى : ﴿ **فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء ...** »[7] .

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في الطلاق ٢ / ٦٧٠ ، ٢٢٣١ .

(٢) مسلم ج ٣ ص ١٤٩٧ . إمارة ـــ فضل الجهاد والخروج في سبيل الله . وفي مواضع كثيرة من كتب السنة .

(٣) الحديث أخرجه مالك في الموطأ ص ١٨٧ (٤٣) .

(٤) الحديث أخرجه مسلم في الطهارة ١ / ٢٣٥ . ورواه غيره .

(٥) الحديث سبق تخريجه .

(٦) سورة الإسراء : ٣٢ .

(٧) الأحقاف : ٣٢ .

الأمر بلفظ الترك : دع .. دعى .. دعوا ـــ اترك ..
الماضى بفعل التحريم : حرمت ...
ـــ دلالة النهى التحريم كأصل .
ولا ينصرف إلى غيره إلّا بقرينة « الدعاء ، الكراهة » .
ومن دلالته الفساد ـــ على اختلاف ـــ

القاعدة الثالثة : دلالة العموم :

ـــ العام يشمل جميع أجزائه قطعاً .
وهو بعد التخصيص ظنى عند الجميع لكن الخلاف حوله قبل التخصيص .
ـــ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .
آية اللعان نزلت في عويمر العجلاني ﴿ **والذين يرمون أزواجهم** ﴾ .
آية الظهار نزلت في امرأة أوس بن الصامت .
في اللغة : لو طلبت امرأة الطلاق فقال طلقت كل نسائى طلقن وإن كان السبب واحدة .

ـــ الخاص يتقدم العام ـــ على الراجح ـــ
﴿ **وأحل لكم ما وراء ذلكم** ﴾(١) عام « لا تنكح المرأة على عمتها .. »(٢) خاص ﴿ **يوصيكم الله فى أولادكم للذكر ..** ﴾(٣) عام « لا يرث المسلم الكافر .. »(٤) خاص ﴿ **يوصيكم الله فى أولادكم للذكر ..** ﴾ الوصية عام ، لا وصية لوارث .. »(٥) خاص .

القاعدة الرابعة :

ـــ عبارة النص تتقدم « إشارة النص » ، وإشارة النص تتقدم مفهوم الموافقة « فحوى الخطاب : أو التنبيه » ، ومفهوم الموافقة تتقدم اقتضاء النص « ويسمى

---

(١) النساء : ٢٤ .
(٢) الحديث أخرجه البخارى فى النكاح ٧ / ١٥ . ومسلم في النكاح ٢ / ١٠٢٩ .
(٣) النساء : ١١ .
(٤) الحديث أخرجه البخاري في الفرائض ٨ / ١٩٤ .
ومسلم في الفرائض ٣ / ١٢٣٣ « ١٦١٤ » .
(٥) الحديث أخرجه أبو داود في الوصايا ٣ / ٢٩١ « ٢٨٧٠ » .

الإضمار » ومفهوم المخالفة معمول به لدى الجمهور إذا دل القيد على احتراز أو اختصاص .

ـــ والمحكم يتقدم المفسر « لا يحتمل التأويل » ، والمفسر يتقدم النص « يحتمل التأويل والمراد منه هو المقصود أصالة » ، والنص يتقدم الظاهر « لم يكن هو المراد أصالة ويحتمل التأويل » ـــ وهذا كله في النصوص الواضحة الدلالة .

الفصل الثالث
قواعد منطقية
القواعد الموضوعية المستمدة من العقل « المنطق »

القاعدة الأولى : تعريفات :

لا نخوضُ في كل التعريفات فهى كثير .. وإنما نخوض فى اللازم منها فقط باعتبارها مصطلحاً ولا مشاحة في الاصطلاح .

١ ـــ التصور والتصديق :

فالتصور إدراك أى مفرد من مفردات الأشياء والمعانى : الثلج ـــ الحرارة .
والتصديق إدراك النسبة بين مفردين فأكثر .
إما موجبة « أى مثبتة » ، وإما سالبة « منفية » .

٢ ـــ الموضوع ، والمحمول ، والقضية :

الموضوع « مبتدأ أو فاعل » .
والمحمول « خبر أو فعل » .

ومنهما تكون القضية : « وهى الجملة التامة الخبرية ـــ أما الجمل الإنشائية القائمة على الأمر والنهى فليست موضوع بحث » .

الثلج « موضوع » ماء متجمد « محمول » « موجبة » .

الثلج ليس حاراً « سالبة » .
أشرقت « محمول » الشمس « موضوع » « موجبة » .
لم تشرق الشمس « سالبة » .

٣ ـ الكليات الخمس :

ـ الجنس : مفهوم كلي يشمل على كل الماهية المشتركة بين متعدد مختلف في الحقيقة حيوان « الإنسان ـ الفرس ـ الغزال » .

ـ النوع : مفهوم كلي يشمل على كل الماهية المشتركة بين متعدد متفق في الحقيقة « إنسان ـ فرس ـ غزال » .

ـ الفصل : مفهوم كلي يتناول من الماهية الجزء الذي يميز النوع عن سائر الأنواع المشاركة له في الجنس .

ناطق « يميز النوع الإنساني » .
أما الحيوانية فجزء مشترك مع سائر الأنواع .
ـ الخاصة : مفهوم كلي من صفات الشيء الخارجة عن ماهيته والخاصة بها
ضاحك ـ ليست جزءاً من ماهية الإنسان .
لكنه صفة خاصة تميز بها عن سائر الحيوان متعلم ـ كاتب ...
ـ العرض العام : مفهوم كلي من صفات الشيء الخارجة عن ماهيته وغير الخاصة به « إما لازم ـ أو غير لازم » .

٤ ـ المفهوم والماصدق :

المفهوم : المعنى الذهني الذي يثيره اللفظ في الأذهان .
الماصدق : الفرد أو الأفراد التي ينطبق عليها اللفظ .

القاعدة الثانية : في الاستدلال المباشر :

وهو الذي لا يحتاج الباحث فيه لأكثر من قضية واحدة ويتم الاستدلال بإحدى طريقتين :

١ ـ التقابل :

فكل قضية موجبة أو سالبة يمكن أن يشتق منها قضية أخرى مخالفة لها في الكيف « الإيجاب والسلب » .

أو في الكم « الكلية والجزئية » .

٢ ـ العكس :

بإبدال حدى القضية « المحمول ، والموضوع » .
الإنسان ليس بطائر .
الطائر ليس بإنسان .

القاعدة الثالثة : الاستدلال غير المباشر :

١ ـ الاستقراء :

ـ تتبع الجزئيات كلها أوبعضها للوصول إلى حكم عام يشملها جميعاً أو انتقال الفكر من الحكم على الجزئي إلى الحكم على الكلى الذي يدخل الجزئي تحته .

ـ وله عدة أحوال :

إما أن يكون يقينياً .. أى لا تقبل حقائقه احتمال النقض سواء كان موجباً بمعنى مثبتاً أو كان سلباً بمعنى نافياً للشيء .

وإما أن يكون ظنياً راجحاً ـ تبعاً لدرجة قربه أو بعده من اليقين أو يكون ظنياً مساوياً في القوة لما يخالفه فيقف الفكر منه موقف الشك أو يكون ظنياً مرجوحاً لقوة ما يخالفه فيتفاوت تبعاً لقربه من الرفض .

ـ استخدمه المسلمون في استخراج قواعد اللغة العربية وضوابطها « النحو والصرف وفي علم العروض » .

وفي الفقه « مدة الحيض ـ النفاس . مدة الأجنة في الأرحام » .

وفي الأصول .

وفي جمع المعارف « الحديث ، الجغرافيا ، التاريخ ، الأدب ، الحكم والأمثال » .

توجيه القرآن إلى دراسة قصص السابقين وما فيه من عبر وإلى دراسة الطبيعة .

ولا يلزم الاستقصاء .. بل يكفي نماذج متنوعة يستنبط منها كليات عامة .

والاستقراء إما أن يكون تاماً :

باستقصاء كل الجزئيات « وحدات الزمن ــ نجوم الشر بالمجموعة الشمسية » .

وهو قد يفيد اليقين .

والاستقراء الناقص :

تدرس منه بعض جزئيات أو أجزاء الشيء .

أمثلته : كل حيوان ذى ثدى له أذن .

كل حيوان ذي قرن مجتر .

كل حيوان ذى قرن مشقوقة الظلف .

ــ مراحل الاستقراء .

مرحلة التجربة والملاحظة .

مرحلة الفروض العلمية .

مرحلة تحقيق الفروض أو ترجيحها بالمزاولة .

٢ ــ القيـــاس :

صيغة شكلية لإثبات حقائق سبق العلم بها ولكن حصلت الغفلة عن جوانب منها .

ــ الشمس كتلة من نار .

كل نار محرقة .

الشمس كتلة من نار محرقة « اكتفاء بأحد المتكررين » .

ــ كل جسم مؤلف .

وكل مؤلف حادث .
كل جسم حادث .

٣ ــ التمثيـــل :

عملية فكرية تقوم على تشبيه أمر بآخر لاتفاقهما في العلة التي قامت عليها الظواهر .

مشابهة أمة لأخرى فى السير والتكوين يؤدي إلى تشابههما في النتيجة .
مشابهة الصراع بين الحق والباطل بالماء والزبد يؤدى إلى تأكيد نهاية الباطل .

القاعدة الرابعة : مراتب الحجج :

حجة برهانيـــة :

تفيد اليقين الجازم .
كل قادر على الخلق قادر على إعادته ــ فالله قادر على إعادة الخلق .

حجة جدليـة :

مقاربة لقوة اليقين وملزمة للطرف الآخر .
حسن إفشاء السلام ، وإطعام الطعام ، وصلة الأرحام ، وملازمة الصدق في الكلام .

حجة خطابيـــة :

تفيد ظناً راجحاً مقبولاً ــ غير ملزمة الصدق في الكلام .

﴿ هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾[1] .

---

(١) الروم : ٢٨ .

حجة شعرية :

تتلاعب بمشاعر الطرف الآخر وإن كان صاحبها عالما بعدم صحتها .

هو البحر من أى الجوانب جئته فلجته المعروف والجود ساحله

حجة مرفوضـة :

مؤلفة من مقدمات كاذبة .
أو فيها ما هو كاذب غير صحيح .
قائمة على الغلط أو المغالطة « ويل للمصلين » الصيام ضار .

القاعدة الخامسة : أحكام عقلية وأحكام عادية :

أ ــ أحكام عقلية :

ــ ممكن الوجود والعدم عقلاً « ويسمى الجائز ، ويسمى الممكن » وجودنا ، وعدمنا ، العودة إلى الحياة بعد الموت ، اجتياز مسافات بعيدة .

ــ مستحيل الوجود عقلاً .

الشيء الواحد ، من جهة واحدة ، وزمن واحد ، ومكان واحد ، وبصفة معينة يستحيل ــ يكون موجوداً ومعدوماً في وقت واحد « اجتماع النقيضين ، في وقت واحد ، في شيء واحد ، ومثل ترجيح أحد المتساويين تساوياً تاماً من غير مرجح » .

ــ واجب الوجود عقلاً .
متى كان الكل موجوداً ، وجب وجود الجزء عقلاً .
متى وجد المسبب ، وجب عقلاً وجود السبب .

ب ــ أحكام عادية :

ممكن في العادة ، كل أمر ممكن الوجود ، وممكن العدم .
مستحيل فى العادة « كإحياء الموتى ، واستحالة العصى حية » .
واجب في العادة : آثار الجاذبية ، وخروج الآيات .

القاعدة السادسة : مسلمات :

١ ـــ عدم « الوجدان ـــ بمعنى العثور أو الإدراك » لا يستلزم عدم الوجود أو بمعنى آخر عدم العلم ، لا يعنى « لازم الوجود » أو لا يعني علم العدم .

٢ ـــ اللزوم بين شيئين قد يكون من أحدهما للآخر ، وقد يكون تلازماً بينهما معاً .

٣ ـــ نفى الأعم يستلزم نفى الأخص لكن نفى الأخص لا يستلزم نفى الأعم وإثبات الأعم لا يستلزم إثبات الأخص ، لكن إثبات الأخص يستلزم إثبات الأعم .

٤ ـــ علم « المخلوق » يتبع المعلوم .

وليس المعلوم هو الذي يتبع العلم .

القاعدة السابعة : مراحل المناظرة :

١ ـــ مرحلة المبادىء :

ويتم فيها تعيين محل النزاع حتى لا يكون تشتت .

٢ ـــ مرحلة الأواسط :

تقدم الدلائل التي يظهر فيهالزوم المطلوب .

٣ ـــ مرحلة المقاطع .

مرحلة إذا انتهى إليها البحث انقطع .

وهو ينقطع إذا انتهى إلى الضروري « أى اليقينى الذي يجب التسليم بالضرورة العقلية ـــ أو انتهى إلى الظنى الذي يسلم به الخصم » .

٤ ـــ النتيجـــة :

إذا عجز المعلل ، كان مفحماً .

إذا عجز السائل ، كان ملزماً .

الباب الرابع

نماذج من الحوار

أولا ـ من كتاب الله .

ثانيا ـ من السنة والسيرة .

ثالثا ـ من السلف الصالح .

نماذج من الحوار

هذه النماذج :

ــ من كتاب الله .

ــ ومن سنة أو سيرة رسول الله ﷺ .

ــ ومن سيرة السلف الصالح .

نقدمها ليتأكد لدى القارىء أن ما قدمنا من قواعد قد طبق ، وليروا أي أفق سامق ومستوى رفيع رسم لنا الإسلام حين نجادل ﴿ **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلّا بالتي هي أحسن** ﴾(١)

وليعلموا أن السباب والعنف لا يصل بهم إلى نتيجة إن لم يؤد إلى عكس ما يبتغونه ﴿ **ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم** ﴾(٢) « ليس المؤمن بطعان ولا لعّان ».(٣)

وليعلم أعداؤنا من بعد أننا في طريقنا إلى الحق هدفاً نتخذ الحق وسيلة ولا نخوض مع الخائضين وإنما نعرض عن الجاهلين

والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم .

---

(١) العنكبوت : ٤٦ .

(٢) الأنعام : ١٠٨ .

(٣) الحديث أخرجه الترمذي في البر والصلة ٨ / ١٧٦ [شرح ابن العربي المالكي] . والإمام أحمد في المسند ١ / ٤٠٥ ، ٤١٦ .

أولا : نماذج من الحوار فى كتاب الله

من خلال القصص القرآني الذي يشغل مساحة كبيرة من كتاب الله ، ومن بين ما نتعلمه من هذا القصص ، فضلاً عما يرد فيه من تشريع معجز ،، يغفل عنه الكثير[١] نجد نماذج الحوار العف الكريم .. بين أنبياء الله وأقوامهم ، وبين أهل الجنة وأهل النار ، وبين أصحاب الحق وأصحاب الباطل . وسوف نختار من بين هذه النماذج العديدة نماذج ثلاثة ، ونحيل القارىء إلى كتاب الله يستخرج منه غير ذلك ، وما يزال كتاب الله سبحانه وتعالى معطاءً على مر العصور ، لا تبلى جدّته ، ولا يخلق على كثرة الرد .

النموذج الأول : بين نوح وقومه :

نوح نبى الله ورسوله .. من أولى العزم من الرسل . جاء قومه يدعوهم إلى الله ﴿ **أن اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره** ﴾[٢] وهم هائمون في الأصنام . وكان له جدال مع قومه ، وكان له جدال مع ابنه ، كما كان لإبراهيم جدال مع أبيه .

ــ أما جدال نوح مع قومه : فنأخذ له نموذجاً من سورة هود :

بدأ فدعاهم إلى التوحيد :

﴿ **إنى لكم نذير مبين . أن لا تعبدوا إلّا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم** ﴾[٣] فردوا عليه بتهم أربع : أنه بشر ، وأنه لا يتبعه إلّا الأراذل ، وأنه ليس له عليهم فضل ، وأخيراً إنه من الكاذبين .

﴿ **فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نَرَاك إلّا بشراً مِثْلَنا وما نَرَاك اتبعك إلّا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين** ﴾[٤] .

---

(١) راجع مؤلفنا ، القرآن فوق الدستور ــ تحت الطبع .

(٢) الأعراف : ٥٩ ، المؤمنون : ٢٣ .

(٣) هود : ٢٥ ، ٢٦ .

(٤) هود : ٢٧ .

فرد عليهم نوح بأربع : أنه على بينة من ربه عَمِيَتْ أبصارهم عنها ، ولن يكرههم عليها . أنه لن يسألهم أجراً ؛ لأن أجره على الله . أنه لن يطرد الذين آمنوا ؛ لأنه يخاف الله ، ومن ينصره من الله ، وأنه لن يقول لهم لن يؤتيكم الله خيراً ؛ إنه إن فعل ذلك كان ظالماً ، وأخيراً إنه لا يملك خزائن الله ، ولا يعلم الغيب ، ولا يدعى أنه ملك .

فرد بالأخيرة على الأولى « أى رد على اتهامهم إياه أنه بشر .. بأن ذلك لا يعيبه » .

وفي مكان آخر ﴿ **أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ..** ﴾ وفيه استفهام تعجبي ! .

ورد على الثانية « أنه لا يتبعه إلا الأراذل » بالثالثة .. وفيها فى الواقع ردود أربع «أنه لن يطرد الذين آمنوا ؛ إنه إن فعل فمن ينصره من الله ، إنه لن يقول لهم ما يؤذيهم ، إنه إن فعل كان من الظالمين » .

ورد على الثالثة « أنه ليس له عليهم فضل » بالأولى « أنه على بينة من ربه ، وأنهم عموا عن هذه الحقيقة ، وأنه لن يكرههم على فهمها أو هضمها ! » .

وكان فيها رد كذلك على الأخيرة « أنه من الكاذبين » .

وزاد على ذلك كله أنه لا يسألهم أجراً ، وهذه سمة الصادقين .

وإليكم الآيات بعد هذا السرد البسيط .

﴿ **قال يا قوم أرأيتم إن كنتُ على بينة من ربي وآتانى رحمة من عنده فَعُمِّيَتْ عَلَيكم أنُلزِمُكُموهَا وأنتم لها كارهون . ويا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجْرِيَ إلَّا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم مُلاقُوا رَبِّهم ولكني أراكم قوماً تجهلون . ويا قوم من ينصُرُني من الله إن طردتُّهم أفلا تذكرون . ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزْدَرِي أعيُنُكُمْ لن يؤْتِيَهُمُ الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم إني إذاً لمن الظالمين** ﴾(١)

---

(١) هود : ٢٨ ـــ ٣٥ .

ونصل إلى الإفحام فيقول قومه له :

﴿ قالوا يانوح قد جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِما تَعِدُنَا إن كنت من الصادقين ﴾ فيرد نوح على ذلك : ﴿ قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمُعْجِزِينَ . ولا ينفعُكم نُصْحِي إن أَرَدْتُّ أن أنصَحَ لكم إن كان الله يُرِيدُ أن يُغْوِيَكُم هو ربُّكم وإليه ترجعون . أم يقولون افتراه قل إن افتريته فَعَلَيَّ إجرامي وأنا برىء مما تُجْرِمونَ ﴾(١) .

وتأتي العاقبة في النهاية بعد استهزائهم منه وهو يصنع الفلك ...

وقبل أن نشير إلى العاقبةنشير إلى حواره مع ابنه ، ويليه حواره مع ربه .

أما حواره مع ابنه فقد قال له :

﴿ ... يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ﴾ .

فكان رد ابنه الجاهل أنه سيعتصم بالجبل ﴿ قال سآوي إلى جبل يَعْصِمُنِي من الماء ﴾ فجاء رد الوالد الناصح الأمين ﴿ لا عَاصِمَ اليوم من أمر الله إلّا من رحِمَ ﴾ .

ولم يستطعْ الابن جواباً فقد تاه جوابه مع أمر الله الذي جاء ﴿ وحال بينهما الموجُ فكان من المُغْرَقِينَ ﴾ .

وانتهى المشهد الأليم للأب يشهد مصرع ابنه فتأخذه الشفقة بولده فيخاطب ربه .

حواره مع ربه : ﴿ ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعْدَكَ الحَقُّ وأنت أحكم الحاكمين ﴾ وكان قد سبق وعد الله ﴿ قلنا احمل فيها من كلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وأهْلَكَ ... ﴾ وهنا تتقرر القاعدة الربانية التي تفصل بين الكفر والإيمان ، ويأتي معها التوجيه والتأنيب : ﴿ إنه ليس من أهلك إنه عَمَلٌ غير صالح ﴾ [وفى قراءة إنه عَمِلَ غير صالح] ﴿ فلا تسألن ماليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ .

وهنا يعود العبد الأواب إلى ربه يسأله المغفرة والرحمة في تذلل وخضوع :

﴿ قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلّا تغفر لي

---

(١) هود : ٣٢ ــ ٣٥ .

وترحمني أكن من الخاسرين ﴾[1] .

النموذج الثانى : أما إبراهيم مع أبيه :

فنموذج للدعوة الكريمة والحوار السامق :

﴿ .. يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا .
يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سويا .
يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا .
يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا ﴾ .

ويقف الأب حائراً عن الرد ، ومع هذا الحنان من الابن « يا أبت ، يا أبت ، يا أبت ... » يركب الأب رأسه فيسأل ابنه **﴿ أراغب أنت عن آلهتى ﴾** ويعقب السؤال بالتهديد ، ويعقب التهديد بالعقاب **﴿ أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا ﴾** .

ومع هذه الحمم من الأب الكافر ، يرد الابن الرسول الداعية **﴿ سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا . وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا ... ﴾**[2]

ويجادل إبراهيم أباه وقومه حول التماثيل التي يعبدونها من دون الله : **﴿ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴾** .

فيردون الرد الخائب : **﴿ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾** .

فيرد عليهم : **﴿ قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ﴾** .

فيردون عليه ردا خائبا كذلك : **﴿ قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ﴾** .

فيردهم إلى الفطرة لعلهم يعقلون : **﴿ قال بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾** ثم يمضي فيقدم لهم الدليل الحسي على فقدان هذه الآلهة المزعومة لأوصاف الإله الحق : **﴿ فجعلهم**

---

(1) هود : ٤٥ — ٤٧ .

(2) مريم : ٤٢ — ٤٨ .

جُذاذاً إلّا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون ﴾ .

فتنازعوا فيما بينهم وتجادلوا : ﴿ **من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين** ﴾ .

﴿ **قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم** ﴾ ﴿ **قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون** ﴾ ﴿ **قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم** ﴾ .

فيرد عليهم مبكتاً : ﴿ **قال بل فعله كبيرُهم هذا فاسْألوهم إن كانوا ينطقون** ﴾ .

﴿ **فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون** ﴾ .

هنا يتدخل إبراهيم ليقيم عليهم الحجة وليصل بهم إلى الإفحام :

﴿ **قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون** ﴾ .

فيصلون إلى فقدان الحجة وضياع الدليل ، فيبطشون كما تبطش الحيوانات العجماوات :

﴿ **قالوا حَرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كُنْتم فاعلين** ﴾ .

وهنا تتدخل القدرة الإلهية تدخلاً حاسماً ، حماية للرسول العظيم ، وإقامة للحجة على قومه الكافرين : ﴿ **قلنا يا نارُ كوني بَرْداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين** ﴾(١)

النموذج الثالث : أهل الجنة وأهل النار :

في الحوار أطراف ثلاثة : أهل الجنة ، أهل النار ، أصحاب الأعراف « على اختلاف في كنههم » .

ــ يبدأ الحوار بأصحاب الجنة : ﴿ **وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونُودوا أن تلكم**

(١) الأنبياء : ٥١ ــ ٧٠ .

الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ .

ــ ثم يتوجهون إلى أصحاب النار : ﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربُّنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم فأذَّنَ مُؤذِّن بينهم أنْ لعْنةُ الله على الظالمين . الذين يصدون عن سبيل الله ويبْغُونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون ﴾ .

ــ وهنا يظهر صوت أصحاب الأعراف متوجهين لأصحاب الجنة : ﴿ وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كُلًّا بسيماهم ونادَوْا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون ﴾ .

ــ ثم ينتقل الحوار إلى أصحاب النار : ﴿ وإذا صُرِفَتْ أبصارُهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمْعُكم وما كنتم تستكبرون . أهؤلاء الذين أقْسمْتم لا ينالُهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾ .

ــ وتأتي خاتمة الحوار ندما يوم لا ينفع الندم : ﴿ ونادى أصحابُ النار أصحاب الجنة أن أفيضُوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله .. ﴾ .

ويأتي التبكيت من أهل الجنة مع الحرمان أليماً أليما أليما .... ﴾ قالوا إن الله حرمهما على الكافرين . الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون .. ﴾[1] .

النموذج الرابع : مؤمن آل فرعون :

وهو نموذج يتكرر . إذ فرعون يتكرر ... ومعه قائم لله بحجة ، لا يخشى في الله لومة لائم ، يكتم إيمانه .. حتى إذا وجد الباطل يهم أن يبطش بالحق صار سكوته إثماً ، وصار أمره ونهيه . وقوله الحق واجبا .

يبدأ فرعون فيتهم « موسى عليه السلام » بالسحر والكذب ، ويأمر بقتل الأبناء ، واستحياء النساء ، ثم يمضي إلى موسى نفسه فيأمر بقتله لأنه يخشى أن

---

(١) الأعراف : ٤٣ ــ ٥١ .

يبدل دين قومه أو أن يظهر في الأرض الفساد « !! » هكذا يا طاغية ... موسى .. هو الذي سيُظْهِرُ في الأرض الفساد ! .

ويستعيذ موسى بربه من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب .

ويهم فرعون اللعين بالتنفيذ ، فينهض المؤمن الذي يكتم إيمانه ليلقنهم دروساً ، وليقول كلمة الحق ، وليجادلهم .. لعلهم يتقون ! ولنستمع إلى الآيات :

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب . فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلَّا في ضلال . وقال فرعون ذروني أقتُلْ موسى وَلْيَدْعُ ربه إني أخاف أن يُبَدِّل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد . وقال موسى إنِّي عذت بربي وربكم من كل مُتَكَبِّرٍ لا يؤمن بيوم الحساب . وقال رجل مؤمن من آل فرعون يَكْتُمُ إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربِّيَ الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يَكُ كاذبا فعليه كذبُه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مُسْرِفٌ كذاب . يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن يَنْصُرُنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أُرِيكُم إلَّا ما أرى وما أَهْدِيكُمْ إلَّا سبيل الرشاد . وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثْلَ يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوحٍ وعادٍ وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد . ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد ... ﴾(1) .

﴿ وقال فرعونُ يا هامان ابْنِ لي صرحاً لعلي أَبْلُغُ الأسباب . أسباب السماوات فأطلع إلى إلٰه موسى وإني لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عَمَلِهِ وَصُدَّ عن السبيل وما كيدُ فرعون إلَّا في تباب . وقال الذي آمن يا قوم اتَّبعونِ أهدِكُمْ سبيل الرشاد . يا قومِ إنما هذه الحياةُ الدُّنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار . من عَمِلَ سيئة فلا يُجْزَى إلَّا مثلها ومن عَمِلَ صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمنٌ فأولئك يدخلون الجنة يُرْزَقُونَ فيها بغير حساب . ويا قوم مَالى أدعوكم إلى النجاة وتَدْعُونَنِي إلى النار . تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بالله وأشرك به

---

(1) غافر : ٢٣ — ٣٣ .

ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار . لا جرم أنَّمَا تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مَرَدّنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار . فَسَتَذْكُرُون ما أقولُ لكم وأُفَوّضُ أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد ﴾ .

وكانت النتيجة بعد هذا الحوار الكريم والدعوة الطيبة وكلمة الحق قرع بها أنف فرعون : **﴿ فوقاه الله سيئات ما مَكَروا وحاق بآل فرعون سوءُ العذاب . النار يُعْرَضُون عليها غُدُوا وعشيا ويوم تقوم الساعةُ أَدْخِلُوا آل فرعون أشدَّ العذاب ﴾**(١) .

ثانيا : نماذج من الحوار فى السنة والسيرة

النموذج الأول : قصة الغلام والساحر :

في حديث طويل رواه مسلم ، حكت السنة المطهرة كيف كان إيمان غلام سبباً في إيمان جليس ملك متجبر ، ثم كيف عندما علم الملك فجمعهم ، توصل الغلام بالملك إلى أن يجمع شعبه كله في صعيد واحد ثم يمسك بهم من كنانة الغلام ويقول ــ وهو الذى ينكر وجود الله ــ باسم الله رب الغلام ، فيأمر بشق الأخاديد « الترع الصغيرة » على أفواه السكك ويضرم بها النيران ، ويأمر بإلقاء الناس في هذه الأخاديد ، فتتقاعس امرأة معها غلام ، فيقول الغلام « يا أمه اصبرى فإنك على الحق » .

وفي الحديث عدة حوارات ، لكن ذكاء الغلام أن يدفع بالملك ليجمع شعبه كله في مكان واحد ، ثم يدفعه أن ينطق أمامهم بكلمة « الله » فيقول باسم الله رب الغلام ، مما يفضي إلي إيمان الناس جميعاً ... كل ذلك وغيره مثل جيد للحوار الذي يصل إلى الحق ، أو يوصل إلى الحق ... والله أعلم(٢) .

النموذج الثانى : ضمام بن ثعلبة وافدا عن بنى سعد بن بكر :

بعثت بنو سعد بن بكر ضمام بن ثعلبة وافداً إلى رسول الله ﷺ فقدم

---

(١) غافر : ٣٥ ــ ٤٦ .

(٢) رياض الصالحين ــ باب الصبر ــ ص ١٨ ، ١٩ ــ طبعة دار الندوة ــ بيروت ــ لبنان .

عليه ، وأناخ بعيره على باب المسجد ... ثم وقف على رسول الله ﷺ فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال رسول الله ﷺ : أنا ابن عبد المطلب .

قال : أمحمد .

قال : نعم :

قال : يابن عبد المطلب إني سائلك ومغلظ عليك في المسألة فلا تجدنْ في نفسك[1] .

قال : لا أجد في نفسي فسلْ عما بدا لك .

قال : أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، آلله بعثك إلينا رسولاً ؟ .

قال : اللهم نعم .

قال : أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، آلله أمرك أن نعبده وحده لا نشرك به شيئاً وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه ؟ .

قال : اللهم نعم .

قال : فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، آلله أمرك أن تصلى هذه الصلوات الخمس .

قال : اللهم نعم .

ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة : الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها ، ينشده عند كل فريضة منها كما ينشده في التي قبلها ، حتى إذا فرغ قال : فإني أشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله وسأؤدي هذه الفرائض ، وأجتنب ما نهيتني عنه ، ثم لا أزيد ولا أنقص .

ثم لما قدم قومه كان أول ما تكلم به أن قال : بئست اللات والعزى .

قالوا : مه يا ضمام اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجنون .

قال : ويلكم إنهما والله لا يضران ولا ينفعان . إن الله قد بعث رسولاً وأنزل كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه ، وإني أشهد أن لا إله إلّا الله وحده

---

(١) أى لا تتأثر من المناقشة .

لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به وما نهاكم عنه .

فوالله ما أمسى من ذلك اليوم في حاضره « حيه » رجل ولا امرأة إلّا مسلماً[1] .

ثالثا : نماذج من الحوار فى سيرة السلف الصالح

أ ـ فى عصر الصحابة والتابعين

النموذج الأول : حوار ابن عباس مع الحرورية من الخوارج :

ولقد يرى البعض أننا نكرر هذا الحوار[2] لكنا نسوقه هنا كنموذج رائع للحوار الذي يوصل إلى الحق دخل عليهم ابن عباس فبادروه بقولهم : ما جاء بك يابن عباس وما هذه الحلة التى عليك ؟ فرد عليهم : وما تعيبون من ذلك ولقد رأيت رسول الله ﷺ وعليه أحسن ما يكون من الثياب اليمنية . ثم تلا قوله تعالى : ﴿ **قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق** ﴾[3] .

فقالوا : ما جاء بك ؟ .

فقال : جئتكم من عند أصحاب رسول الله ﷺ وليس فيكم منهم أحد ، ومن عند ابن عم رسول الله ﷺ وعليهم نزل القرآن وهم أعلم بتأويله ، جئت لأبلغكم عنهم وأبلغهم عنكم .

فقال بعضهم : لا تخاصموا قريشاً فإن الله يقول : ﴿ **بل هم قوم خصمون** ﴾[4] .

فقال بعضهم : بل فلنكلمه . قال فكلمني منهم رجلان أو ثلاثة .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ـــ جـ ٤ ـــ جـ ٤ ـــ دار القلم ص ٢١٩ ـــ ٢٢١ بتصرف .

(٢) سقناه في كتابنا الإيمان الحق عند الحديث عن الإفراط ، وسقناه كذلك في كتابنا الاتجاهات الفكرية المعاصرة .

(٣) الأعراف : ٣٢ .

(٤) الزخرف : ٥٨ .

قال : قلت : ما نقمتم عليه ؟ . قالوا : ثلاثاً . فقلت : ما هي ؟ .

قالوا : حكّم الرجال في أمر الله والله يقول ﴿ **إن الحكم إلّا لله** ﴾(١)

قال : قلت هذه واحدة ، وماذا أيضاً ؟ .

قالوا : فإنه قاتلهم ولم يسب ولم يغنم ، فلئن كانوا مؤمنين لم يحل قتالهم ولئن كانوا كافرين حل قتالهم وسبيهم .

قال قلت : وماذا أيضاً ؟ . قالوا : ومحا نفسه من إمرة المؤمنين ، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين .

قال : قلت فإن أتيتكم من كتاب الله وسنة رسوله ما ينقض قولكم أترجعون ؟ قالوا : وما لنا لا نرجع . قلت : أما قولكم حكّم الرجال في أمر الله ، فإن الله قال في كتابه ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ، ومن قتله منكم متعمداً فجزاءٌ مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم** ﴾(٢) وقال في المرأة وزوجها ﴿ **وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها** ﴾(٣) فصير الله ذلك إلى حكم الرجال ، فناشدتكم الله أتعلمون حكم الرجال في دماء المسلمين وفي إصلاح ذات البين أفضل أم في ثمن أرنب ثمنه ربع درهم وفي بضع امرأة ؟ .

قالوا : بلى هذه أفضل . قال : أخرجتم من هذه ؟ قالوا : نعم .

قال : وأما قولكم قاتل ولم يسب ولم يغنم ، أتسبُّونَ أمَّكُم عائشة ؟ فإن قلتم نَسْبِها فنستحل منها ما نستحل من غيرها فقد كفرتم ، وإن قلتم ليست بأمنا فقد كفرتم ، فأنتم ترددون بين ضلالتين . أخرجتم من هذه ؟ قالوا : نعم .

قال : وأما قولكم محا نفسه من إمرة المؤمنين فإني آتيكم بمن ترضون ، نبي الله يوم الحديبية حين صالح أبا سفيان وسهيل بن عمرو ، فقال أبو سفيان وسهيل بن عمرو : ما نعلم أنك رسول الله ، ولو نعلم أنك رسول الله قاتلناك . قال رسول الله ﷺ : اللهم إنك تعلم أني رسولك ، يا علي اكتب هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وأبو سفيان وسهيل بن عمرو .

---

(١) يوسف : ٤٠ .

(٢) المائدة : ٩٥ .

(٣) النساء : ٣٥ .

فرجع منهم ألفان ، وبقي بقيتهم فخرجوا فقتلوا جميعاً(١) .

والحوار المتقدم فضلاً عما فيه من مبادىء ، وأدب ، ففيه قمة فن الحوار .. ولذلك كان من نتائجه رجوع ألفين ، ولو اتبع الذين يناهضون « الفكر المتطرف » هذه الطريقة لوصلوا إلى أفضل مما يصلون إليه نتيجة القمع والإرهاب ، فإن الفكر يعالج بالفكر ، والحجة تقرعها الحجة ، ولا يمكن للسوط أن ينتزع عقيدة أو يغير فكراً .

النموذج الثانى : بين الرشيد وسفيان الثورى :

هذه وإن لم تحقق مناظرة أو حواراً شفهياً .. فإن فيها لوناً من الحوار الكتابي لا بأس أن نقدمه كنموذج .

كتب الرشيد إلى سفيان الثورى يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله هارون الرشيد أمير المؤمنين ، إلى أخيه سفيان بن سعيد بن المنذر .

أما بعد : يا أخي قد علمت أن الله تبارك وتعالى آخى بين المؤمنين ، وجعل ذلك فيه وله ، واعلم أني آخيتك مؤاخاة لم أصرم بها حبك ، ولم أقطع منها ودَّك ، وإني منطو على أفضل المحبة والإرادة ، ولولاهذه القلادة التي قلدنيها الله لأتيتك ولو حبواً ، لما أجد لك في قلبي من المحبة ، واعلم يا أبا عبد الله أنه ما بقي من إخواني وإخوانك أحد إلَّا وقد زارني وهنأني بما صرت إليه ، وقد فتحت بيوت الأموال وأعطيتهم من الجوائز السنية ما فرحت به نفسي وقرت به عيني ، وإني استبطأتك فلم تأتني ، وقد كتبت إليك كتاباً شوقاً مني إليك شديداً ، وقد علمت يا أبا عبد الله ما جاء في فضل المؤمن وزيارته ومواصلته ، فإن ورد عليك كتابي فالعَجَل العَجَل ... » .

وقد رد عليه سفيان الثورى بما يلى :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من العبد المذنب سفيان بن سعيد بن المنذر

(١) الإيمان الحق ــ للمؤلف ص ٧٣ ــ ٧٦ نقلاً عن الاعتصام للشاطبي ــ طبعة أولى ١٣٣١ هـ ــ ١٩١٣ م مطبعة المنار بمصر جـ ٣ ص ٣٥ ــ ٣٧ .

الثوري ، إلى العبد المغرور بالآمال هارون الرشيد ، الذي سُلِبَ حلاوة الإيمان . أما بعد : فإني قد كتبت إليك أعرفك أني قد صرمت حبلك ، وقطعت ودك ، وقَلَيْتُ موضعك[1] فإنك قد جعلتني شاهداً عليك بإقرارك على نفسك في كتابك ، بما هجمت به على بيت مال المسلمين ، فأنفقته في غير حقه ، وأنفذته في غير حكمه ، ثم لم ترض بما فعلته وأنت ناءٍ عَنِّي ، حتى كتبت إليَّ تشهدني على نفسك ، أما إني قد شهدت عليك أنا وإخواني الذين شهدوا قراءة كتابك ، وسنؤدي الشهادة عليك غداً بين يدي الله تعالى .

يا هارون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم ، هل رضى بفعلك المؤلفة قلوبهم ، والعاملون عليها في أرض الله تعالى ، والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل ، أم رضي بذلك حملة القرآن وأهل العلم والأرامل والأيتام ؛ أم هل رضي بذلك خلق من رعيتك ؟ فشد يا هارون مئزرك ، وأعد للمسألة جواباً ، وللبلاءِ جلباباً ، واعلم أنك ستقف بين يدي الحكم العدل ، فقد رزئت في نفسك إذ سلبت حلاوة العلم والزهد ولذيذ القرآن ومجالسة الأخيار ، ورضيت لنفسك أن تكون ظالماً ، وللظالمين إماماً .

يا هارون قعدت على السرير ، ولبست الحرير ، وأسبلت ستراً من دون بابك ، وتشبهت بالحجبة برب العالمين ، ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك ، يظلمون الناس ولا ينصفون ، ويسرقون ويقطعون السارق ، ويشربون الخمور ويضربون من يشربها ، ويزنون ويحدون الزاني ــ أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها على الناس ؟ .

فكيف بك يا هارون غداً إذا نادى المنادي من قبل الله تعالى ﴿ **احشروا الذين ظلموا وأزواجهم** ﴾[2] أين الظلمة وأعوان الظلمة ، فقدمك بين يدي الله تعالى ويداك مغلولتان إلى عنقك ، لا يفكها إلَّا عدلك وإنصافك ، والظالمون حولك وإنك لهم سابق وإمام إلى النار ، كأني بك يا هارون وقد أخذت بضيق الخناق ، ووردت المساق ، وأنك ترى حسناتك في ميزان غيرك ، وسيئات غيرك

---

(١) أي كرهت موضعك .

(٢) الصافات : ٢٢ .

في ميزانك زيادة عن سيئاتك ، بلاء على بلاء ، وظلمة على ظلمة ، فاحتفظ بوصيتي واتعظ بموعظتي التي وعظتك بها ، واعلم أني قد نصحتك ، وما أبقيت لك في النصح غاية ، فاتق الله يا هارون في رعيتك ، واحفظ محمداً ﷺ في أمته ، وأحسن الخلافة عليهم .

واعلم أن هذا الأمر لو بقي لغيرك لم يصل إليك ، وهو سائر إلى غيرك، وكذا الدنيا تنتقل إلى أهلها واحداً بعد واحد ، فمنهم من تزود زاداً نفعه ، ومنهم من خسر دنياه وآخرته ، وإني أحسبك يا هارون ممن خسر دنياه وآخرته ... فإياك إياك أن تكتب لي كتاباً بعد هذا فلا أجيبك عنه والسلام .

... فأقبل هارون يقرأ ، ودموعه تنحدر من عينيه ، ويقرأ ويشهق ، فقال بعض جلسائه يا أمير المؤمنين لقد اجترأ عليك سفيان ، فلو وجهت إليه وأثقلته بالحديد ، وضيقت عليه السجن ، كنت تجعله عبرة لغيره .

فقال هارون : اتركونا يا عبيد الدنيا ، المغرور من غررتموه ، والشقي من أهلكتموه ، وإن سفيان أمة وحده ، فاتركوا سفيان وشأنه . ثم لم يزل كتاب سفيان إلى جنب هارون يقرؤه عند كل صلاة حتى توفي رحمه الله[1] .

وليس لنا أن نسامق مقام سفيان ولكن لنا أن نسجل :

١ ـــ الكتاب تضمن ردا على فعلة وقع فيها الخليفة إذ منح المنح من خزائن المسلمين في غير مستحقيها .

٢ ـــ أنه تضمن توجيهاً للخليفة في ذات نفسه حرره من غرور المنصب .

٣ ـــ أن الخليفة ـــ لورعه ـــ تقبل كلام سفيان ، رغم إغراء الحاشية الظالمة به .

ومع ذلك فنحن نسجل ـــ احتراماً للعلم والعلماء ـــ أنه كان يمكن أداء المعنى بأقل من تلك الألفاظ العنيفة ، وأن الأولى بالعلماء أن يتلطفوا مع الناس جميعاً فيما يقدمون من نصائح ﴿ **فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى** ﴾[2] .

---

(١) إحياء علوم الدين جـ ٧ ص ٨٦ ـــ ٨٩ بتصرف ـــ طبع دار الفكر .

(٢) طه : ٤٤ .

لقد اجتهد سفيان فأصاب في ثلاث وأخطأ في واحدة ـــ في ظننا ـــ فله أجره مضاعفاً عن الثلاث وله أجر واحد عن الخطأ . فرضى الله عن العالم ورضي الله عن الخليفة الذي لم تأخذه العزة فينفذ وصية من أغروا بسفيان ، الأمر الذي يتكرر في كثير من الأحوال والأزمان .

النموذج الثالث : بين الحجاج وحطيط :

وقد اخترنا الحجاج لأنه كانت ترتعد الفرائص من ذكر اسمه ، فقولة الحق في مواجهته حواراً أو غيره ليس بالأمر الهين ..

وقد حكي أن حطيطاً الزيات جيء به إلى الحجاج ، فلما دخل عليه قال : أنت حطيط ؟ قال : نعم ، سل عما بدا لك فإني عاهدت الله عند المقام على ثلاث خصال : إن سئلت لأصدقن وإن ابتليت لأصبرن ، وإن عوفيت لأشكرن .

قال : فما تقول في ؟ .

قال : أقول إنك من أعداء الله في الأرض تَنْتَهِكُ المحارم ، وتَقْتُلُ بالظِّنَّة .

قال : فما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ؟

قال أقول : إنه أعظم جرماً منك ، وإنما أنت خطيئة من خطاياه .

قال الحجاج : ضعوا عليه العذاب ... فعذبوه حتى مات وكان ابن ثماني عشرة سنة ـــ رحمه الله(١) ولئن عقبنا على سفيان الثورى ـــ رضي الله عنه.

فليس لنا أن نعقب على حطيط رحمه الله ، ذلك أنه تكلم في مواجهة طاغية من طغاة الأرض ، فقال له بما فيه . ونحسبه ممن قال فيهم رسول الله ﷺ سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله ... »(٢) .

والموقف يغاير السابق . والله أعلم .

النموذج الرابع : حوار (أبو حازم التابعى) مع سليمان بن عبد الملك :

أخبر الضحاك بن موسى قال : مر سليمان بن عبد الملك بالمدينة وهو يريد مكة

---

(١) المرجع السابق ص ٧٤ .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك وصحح إسناده من حديث جابر . انظر الحافظ العراقي لإحياء علوم الدين ٢ / ٣٠٧ .

قام بها أياماً ، فقال : هل بالمدينة أحد أدرك أحداً من أصحاب النبى ﷺ قالوا : أبو حازم ؛ فأرسل إليه ؛ فلما دخل عليه قال له : يا أبا حازم ما هذا الجفاء ؟ .

قال أبو حازم : يا أمير المؤمنين وأى جفاء رأيت منى ؟

قال : أتاني وجوه أهل المدينة ولم تأتني .

قال : يا أمير المؤمنين أعيذك بالله أن تقول ما لم يكن ، ما عرفتني قبل هذا اليوم ولا أنا رأيتك !

قال : فَالْتَفَتَ إلى محمد بن شهاب الزهرىّ فقال : أصاب الشيخ وأخطأت .

قال سليمان : يا أبا حازم ما لنا نكره الموت ؟!

قال : لأنكم أخربتم الآخرة وعمرتم الدنيا فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب .

قال : أصبت يا أبا حازم ، فكيف القدوم غداً على الله تعالى ؟ .

قال : أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله ، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه .

فبكى سليمان وقال : ليت شعري ما لنا عند الله ؟ .

قال : اعرض عملك على كتاب الله .

قال : وأى مكان أجده ؟ .

قال : ﴿ **إن الأبرار لفي نعيم . وإن الفجار لفي جحيم** ﴾[1] .

قال سليمان : فأين رحمة الله يا أبا حازم ؟ .

قال أبو حازم : رحمة الله قريب من المحسنين .

قال له سليمان : يا أبا حازم ، فأى عباد الله أكرم .

قال : أولوا المروءة والنُّهى .

قال له سليمان : فأى الأعمال أفضل ؟ .

قال أبو حازم : أداء الفرائض مع اجتناب المحارم .

قال سليمان : فأى الدعاء أسمع .

---

(١) الانفطار : ١٣ ، ١٤ .

قال : دعاء المُحْسَن إليه للمُحّسين .
فقال : أى الصدقة أفضل ؟ .
قال : للسائل البائس ، وجهد المقل ، ليس فيها منّ ولا أذى .
فقال : فأى القول أعدل ؟ .
قال : قول الحق عند من تخافه أو ترجوه .
قال : فأى المؤمنين أكيس ؟ .
قال : رجل عمل بطاعة الله ودلّ الناس عليها .
قال : فأى المؤمنين أحمق ؟ .
قال : رجل انحط في هوى أخيه وهو ظالم ، فباع آخرته بدنيا غيره .
قال له سليمان : أصبت ، فما تقول فيما نحن فيه ؟ .
قال : يا أمير المؤمنين أو تعفيني ؟ .
قال له سليمان : لا ! ولكن نصيحة تلقيها إليَّ .
قال : يا أمير المؤمنين إن آباءك قهروا الناس بالسيف ، وأخذوا هذا الملك عنوة على غير مشورة من المسلمين ولا رضى لهم، حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة ، فقد ارتحلوا عنها فلو شعرت ما قالوه وما قيل لهم ! .

فقال رجل من جلسائه : بئس ما قلت يا أبا حازم ! .
قال أبو حازم : كذبت ، إن الله أخذ ميثاق العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه .

قال له سليمان : فكيف لنا أن نصلح .

قال : تَدَعُون الصلف وتمسكون بالمروءة وتقسمون بالسوية .
قال له سليمان : فكيف لنا بالمأخذ به ؟ .
قال أبو حازم : تأخذه من حله وتضعه في أهله .
قال له سليمان : هل لك يا أبا حازم أن تصحبنا فتصيب منا ونصيب منك ؟ .

قال : أعوذ بالله ! .
قال له سليمان : ولم ذاك ؟ .
قال : أخشى أن أركن إليكم شيئاً قليلاً فيذيقني الله ضعف الحياة وضعف

الممات .

قال له سليمان : إرفع إلينا حوائجك ؟ .

قال : تنجيني من النار وتدخلني الجنة .

قال سليمان : ليس ذاك إليَّ .

قال له أبو حازم : فما لي إليك حاجة غيرها .

قال : فادع لي .

قال أبو حازم : اللهم إن كان سليمان وَلِيَّك فَيَسِّرْه لخير الدنيا والآخرة ، وإن كان عدوك فخذ بناصيته إلى ما تحب وترضى .

قال له سليمان : قط .

قال أبو حازم : قد أوجزت وأكثرت إن كنت من أهله ، وإن لم تكن من أهله فما ينبغي أن أرمي عن قوس ليس لها وتر .

قال له سليمان : أوصني .

قال : سأُوصيك وأُوجز : عظِّم ربك ونزِّهه أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك .

فلما خرج من عنده بعث إليه بمائة دينار وكتب إليه أن أنفقها ولك عندي مثلها كثير .

قال : فردّها عليه وكتب إليه :

يا أمير المؤمنين ، أعيذك بالله أن يكون سؤالك إيَّاى هزلاً ، أو ردّى عليك بذلاً ، وما أرضاها لك ، فكيف أرضاها لنفسى ! .

إن موسى بن عمران لما ورد ماء مدين وجد عليه رعاء يسقون ، ووجد من دونهم جاريتين تذودان ، فسألهما ، فقالتا : ﴿ **لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير * فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير** ﴾ .

وذلك أنه كان جائعاً خائفاً لا يأمن ، فسأل ربه ولم يسأل الناس .

فلم يفطن الرعاء ، وفطنت الجاريتان .

فلما رجعتا إلى أبيهما أخبرتاه بالقصة وبقوله .
فقال أبوهما « وهو شعيب عليه السلام » :
هذا رجل جائع .
فقال لإحداهما : اذهبي فادعيه . فلما أتته عظّمته وغطت وجهها وقالت :
إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا .

فشق ذلك على موسى حين ذكرت «أجر ما سقيت لنا»، ولم يجد بدًّا من أن يتبعها ؛ لأنه كان بين الجبال جائعاً مستوحشاً .

فلما تبعها هبت الريح فجعلت تصفق ثيابها على ظهرها فتصف له عجيزتها ـــ وكانت ذات عجز ـــ وجعل موسى يعرض مرة ويغض أخرى ؛ فلما عيل صبره ناداها : يا أمة الله كوني خلفي ، وأريني السمت بقولك .

فلما دخل على شعيب إذ هو بالعشاء مهيَّأً .
فقال له شعيب : اجلس ياشاب فتعَشَّ .

فقال له موسى عليه السلام : أعوذ بالله !
فقال له شعيب : لم ! أما أنت جائع ؟ .
قال : بلى ، ولكنني أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيت لهما ، وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئاً من ديننا بملء الأرض ذهباً .

فقال له شعيب : لا يا شاب ؛ ولكنها عادتي وعادة آبائي ، نقري الضَيف ، ونطعم الطعام ، فجلس موسى فأكل .

فإن كانت هذه المائةدينار عوضاً لما حدَّثْت ؛ فالميتة والدم ولحم الخنزير في حال الاضطرار أحل من هذه ، وإن كان لحق في بيت المال فلى فيها نظراء ، فإن ساويت بيننا ، وإلَّا فليس لي فيها حاجة » .

ب - فى العصر الحديث

حوار الأستاذ عمر التلمسانى « رحمه الله » مع رئيس الجمهورية السابق محمد أنور السادات

وننقل هنا عن كتاب : أيام مع السادات نص ما جري بين الداعية الإسلامي الكبير الأستاذ عمر التلمساني ، وبين رئيس الجمهورية السابق محمد أنور السادات :

في ليلة ٢٦ رمضان من ذلك العام « ١٤٠١ هـ » — « ١٩٨١ م » طلب مني السيد منصور حسن ، وزير الثقافة والإعلام ، أن ألقاه في مقر عمله ، فذهبت إليه ومعي الأخ الكريم الحاج أحمد حسنين مدير التوزيع بالمجلة ، وظل الحديث بيني وبين سيادة الوزير من الساعة التاسعة وربع مساءً إلى الساعة الحادية عشرة ونصف مساءً . هو يحاول أن يقنعني بحضور اللقاء الفكرى وأنا أرفض ، لأنني أعرف كبرياء السادات الأجوف ، وحرصه على أن يظهر بمظهر المتعالي على الناس جميعاً ، ولئن قبل منه هذه الصورة كل من تعامل معه ، فما كان يريحني أن يتعالى عليّ إنسان مهما كان وضعه وصفته ، لأنني لا أفتقر إلّا لغنى الله ، ولا أذل إلّا لعزة الله ، ولا أخاف إلّا ممن بيده ملكوت كل شيء . وليس في كل هذا قلامة ظفر عند مخلوق ، مهما ظن بنفسه وظن به الناس ، فلما مضى بنا الوقت آخذين بأطراف الأحاديث ، وتعبت من كثرة الكلام ، قلت لسيادته سأقبل الدعوة ولكننى لن أحضر ، فأجابني بأنه رضى القبول ، لعلمه بأنني سأفي بوعدى ، وانصرفنا . وكنت لا أتصور أن السادات سيخاطبني بالأسلوب الذي يخالف سنة رسول الله ﷺ من ناحية توقير الكبير ، وأنا في سن والده أو أزيد . ولكنه فعل ما ظن أنه يرضي غروره ، ولكن ساء فأله ، فما كنت لأسكت على ما قاله في مواجهتي كائنة ما كانت النتائج . ولكنه فوجيء بما لم يكن في حسبانه هو ، ولا في حسبان المحيطين به ، الراضين باستعلائه عليهم .

وفي ليلة ٢٨ رمضان من ذلك العام سافرت إلى الإسماعيلية ، في صحبة الأخوين الكريمين ، الحاج مصطفى مشهور والدكتور عبد العظيم المطعني . وعندما وصلت إلى مكان الاجتماع جلست في آخر الصفوف ، وبعد دقائق جاءني المشرف على تنظيم الحفل ، وألح وأصر على أن أجلس في الصف الأول ، وقلت إن ذلك تكريم منهم لي فتفاءلت خيراً ، ولعل هناك بدءاً لتفاهم جديد ، ولكن هذه الجلسة كانت لغرض كشفت عنه أحداث الحفل ، فقد أجلسني منظم الحفل في الصف الأول على كرسى ، لو مددت منه خطاً مستقيماً لوجدته ينتهي عند الكرسى الذي يجلس عليه السادات في المنصة ، وكأنهم أرادوا بذلك أن أكون أقرب ما أكون من السادات عندما بدأ سيل اتهاماته المنهمر ، يترامى من حولى شمالاً وجنوباً ويساراً ويميناً ، رجاء أن يصيب منى مقتلاً : تهم لى وللإخوان لا حصر لها بتخريب وعمالة وإثارة للطلبة ، والعمالة والفتنة الطائفية ، وكل ما في أجواء الخيال والانسجام مع الجو الشاعرى الذي كنا نجلس فيه ، بين أحضان حدائق الإسماعيلية الندية الوارفة الظلال . تهم من النوع الذي اعتاد السادات أن يلقيها على كل من لا يرى فيه نابغة الزمان ، وباتعة العصر والأوان . وصاحب الهوى والخيال ما تعدى ، فالتهيؤات فسيحة الجنبات . وطال السباب وضاق الصدر ، ونفد الصبر ، واستثارتني عاطفة الحب للإخوان ، فقاطعته قائلاً « إن هذا كلام يحتاج إلى ردود » فأجابني « لما اخلص كلامى رد كما تشاء » وظل سادراً في غلوائه . وعاب الحاضرون في أنفسهم ، والذين سمعوه على أجنحة الأثير أنه كان في نهاية كل مقطع من كلامه يقول « مش كده يا عمر ؟! » استنكر الشعب كله ، حتى بعض من كان معه ، أن يخاطبني باسمي مجرداً ، غير مراع في ذلك حرمة السن ، ولا طهارة شهر الله ، ولا الصفة التي منحتني إياها الجامعة عندما أعطتني ليسانس الحقوق ، ولا حرمة المنصب الذي يشغله ، والذي يجب أن يزدان بكل لياقة وتهذيب ، ولكن العيار انفلت ، (والبيبة صهللت) ، والخيال انفتح ، ولم يكن في كل عيب من العيب الذي يحلو له دائماً أن يردده ، وإني لأحمد الله على أن أسلوبه لم يسؤني كما أساءه ، ولم ينل منى كما نال منه ، أليس البغى مرتعه وخيم ؟! وكان طوال مدة حديثى يشد الأنفاس الملهلبة ، من بيبته الأنيقة ، حتى ظننت أنها تدانيه بكل ما أراد ، وتوحى إليه بما شاء من نسج الخيال ، كان الله في عوني وعونه .. عوني على الصبر ، وعونه على الابتداع ، وما

أن انتهى من حديثه ، حتى وقفت أمام الكرسى الذي كنت أجلس عليه ، ولم يكن أمامي مذياع ولا مكبر للصوت ولم يكن في ذهني رد معد ، ولكن لأن الله سبحانه يدافع عن الذين آمنوا ، وأسأله أن أكون من بينهم ، ألهم منظمى الحفل أن يأتوني بمكبر للصوت ، أتحدث من خلاله ، ولعلهم حرصوا من وراء ذلك ، أن يسمعوا العالم اعتذاراتي وأسفي وحسرتي على ما بدر مني ، فيبعث ذلك الراحة إلى صدره المثقل بعداوته للإخوان المسلمين . ولكن أراد عمراً وأراد الله خارجة ، فكان في تصرفهم ما أوضح للناس جميعاً ، **أن من بين من في مصر ، من يقول للظالم لقد جُرت وتعديت** .. فنّدت كل التهم التي وجهها إلىّ وإلى الإخوان واحدة واحدة ، بالدليل والبرهان وختمت ردي بالعبارات الآتية :

« **لو أن غيرك وجه إلى مثل هذه التهم لشكوته إليك ، أما وأنت يا محمد يا أنور يا سادات صاحبها ، فإني أشكوك إلى أحكم الحاكمين ، وأعدل العادلين . لقد آذيتني يا رجل وقد ألْزَمُ الفراش أسابيع من وقع ما سمعت منك** » وأشهد صادقاً أن البيبة ارتعشت بين شفتيه . وقال « **إنني لم أقصد الإساءة إلى الأستاذ عمر ولا إلى الإخوان المسلمين .. اسحب شكواك بقى** » فأجبته **بأنها رفعت إلى من لا أستطيع استرداد ما وضعته بين يديه** .. وكانت أول مرة يخاطبني فيها بكلمة أستاذ ، طوال خطابه الممل الطويل !! وانتهى الاجتماع وأرسل لي في أعقابه فوراً وزير الأوقاف الدكتور عبد المنعم النمر ، والأستاذ منصور حسن وزير الثقافة والإعلام ، يبلغاني أمام من كان موجوداً ، أن سيادة الرئيس لم يقصد الإساءة إلىّ ، وأنه سيحدد موعداً لمقابلتي .. **هذا اللقاء الذي لم أطلبه في يوم من الأيام ، والذي زعم في خطاب ٥ سبتمبر سنة ١٩٨١ : أنني طلبته ورفض .** ويا له من رجل يستطيع أن يقلب الحقائق في غير ما تأثم ولا تحرج . ثم انصرف كل منا إلى شأنه ، وإنى لأحمد الله ليل نهار على ما وفقنى إليه من قول ، ما كان له سابقة إعداد في خاطرى . إن ما حدث درس لي وعظة ، ذلك أني ما مسست السادات بسوء طوال معارضتي له . كنت موضوعياً صرفاً ، لا شأن لى بالشخصيات . وكان البعض يعاتبني لما قلت له إنى أتمنى أن يطول عهد حكمك إلى أبعد مدى . وكان هذا إحساسى نحوه حقاً ، لأننا فى مدة حكمه أعدنا إصدار مجلة الدعوة في ثوبها القشيب ، وكنا نقيم الأحفال في المناسبات الدينية وغيرها . نقول فيها ما نشاء في جرأة ووضوح ، لا نخشى فيما نقول إلّا الله ، ولعلها كانت

أمنية خاطئة ، فقد لقيت من السادات حسن ظني به . ومن ذا الذى لا يخطى الظن ، وبعض الظن إثم » أ . هـ .

ــ وأحب أن أسجل هنا من خلال ما سمعته من الأستاذ عمر التلمسانى « شخصياً » رحمه الله ، ومن خلال رفيقه في جهاده وفي ذلك . « المشوار الأستاذ مصطفى مشهور أكرمه الله ، ومن خلال ما سمعته من الناس :

١ ــ أن رد الأستاذ عمر جمع بين أدب الداعية الجم ، وبين قوة كلم الحق .

[لو كان غيرك مكانك لشكوته إليك ، أما وأنت يا « محمد » يا « أنور » « سادات » الذي تقول فإني أشكوك إلى الله ..] .

٢ ــ قرر لى من حضروا فضلاً عن شهادة الأستاذ عمر ، أن « البايب ارتعد في فم السادات بعد هذه الكلمة ، وقال له : اسحب شكواك ... إلخ

٣ ــ كان وقع ما قال الأستاذ عمر رائعاً .. استراح له الرأى العام فقد ق لي سائق تاكسى كان ينقلني من مطار القاهرة غداة هذا الحوار :

« لقد هَزَّأ الأستاذ عمر أنور السادات وقال له : با قولك إيه يا جدع انت أنا اشتكيك لربنا .. انت فاهم ! .

كانت هذه هي الرواية « البلدى » لحديث الأستاذ عمر .

وكان أول ما بادرتني به زوجتي عند وصولي على غير ميعاد ! : لقد الأستاذ عمر أنور السادات « بَسّ بأدب » .

ثم ذهبت على الفور إلى الأستاذ عمر لأسمع منه الحوار كما رواه .

رحم الله عمر التلمساني ، فقد كان عف اللسان ، إلَّا إنه كان قوياً الحق (!) .

وبعد :

فقد كنا نود أن نورد المزيد من نماذج الحوار الإسلامي . لكنا وجدنا ، سردناه من القرآن والسنة والسيرة والسلف الصالح ما يغني عن ذلك .

وإذ نقدم هذا البحث المتواضع لطلاب الدراسات العليا ، فإننا نقدمه

نفس الوقت للمنشغلين بالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، علهم يجدون فيه عوناً على الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن .

ونسأل الله أن يخلص النية له .

وأن يجعل في هذا العمل ما يفيد .

والله المستعان والحمد لله أولاً وآخراً

مكة المكرمة في مساء يوم الجمعة المبارك
من ذى الحجة ١٤٠٥ هـ
من سبتمبر ١٩٨٥ م

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
الباب الأول :	٥
الفصل الأول : حول فضل العلم والإخلاص فيه	٧
المبحث الأول : فى فضل العلم والعلماء	٧
المبحث الثانى : الإخلاص فى العلم	١٠
المبحث الثالث : بعض آداب العلم	١٤
الفصل الثانى : الجدال المحمود والمذموم	١٩
الفصل الثالث : الحق والباطل	٣١
الفصل الرابع : تعريف المادة ونشأتها وتقسيم موضوعاتها	٥٩
الباب الثانى :	
القواعد الشكلية للمناظرة	٦٣
الفصل الأول : أركان المناظرة وشروطها	٦٥
الفصل الثانى : ضوابط المناظرة	٦٧
الفصل الثالث : آداب المناظرة	٦٩
الفصل الرابع : مصطلحات فى هذا العلم	٧٣
الباب الثالث :	
القواعد الموضوعية	٧٧
الفصل الأول : القواعد الموضوعية المستمدة من القرآن	٧٩
الفصل الثانى : القواعد الأصولية	٩١
المبحث الأول : مقدمات	٩١
المبحث الثانى : قواعد متعلقة باللغة العربية	٩٥
المبحث الثالث : قواعد متعلقة بمقاصد الأحكام	١١٢

الموضـوع	الصفحة

المبحث الرابع : القواعد المتعلقة بالدلالات ١٢١

الفصل الثالث : قواعد منطقية ١٢٥

الباب الرابع -

نماذج من الحوار

أولا : نماذج من الحوار فى كتاب الله ١٣٦

ثانيا : نماذج من الحوار فى السنة والسيرة ١٤٣

ثالثا : نماذج من الحوار فى سيرة السلف

أ ــ فى عصر الصحابة والتابعين ١٤٥

ب ــ فى العصر الحديث ١٥٥

الفهرس ١٦١

رقم الايداع ٧٨٦٧ / ٨٩

الترقيم الدولي ٩ ـ ٤٩ ـ ١٤٢٢ ـ ٩٧٧

مطابع الوفاء ـ المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠

تلكس . ٢٤٠٠٤ DWFA-UN

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة ش.م.م
الإدارة والمطابع
تطلب جميع منشوراتنا من :
دار النشر للجامعات المصرية - مكتبة الوفاء
١١ ش شريف ت ٢٩٢١٩٩٧ / ٢٩٢٤٦٠٦